711

روايات عبير

الأصلية

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Billie Williams

المطاردة

روايات عبير

«المُطارَدَة»

كانتْ «سامنتا» في الثالثة من عُمرها. عندما تعرَّفتْ إلى «بارني» الذي كان والده صديقًا وشريكا لعمِّها «نيكولاس» الذي تولَّى الوصاية عليها بعد وفاة والدها.. وكان «بارني» يكْبرها بتسع سنوات. وقد شبَّ الاثنان وكبرا معًا. وكانت الأسرتان تُخططان لإتمام زواج «سامنتا» بـ «بارني».. لكن «سامنتا» تمرَّدت على ذلك وأحسَّت أنه زواج مصلحة، لا دخلَ لعواطفها في الأمر كله. لذا قررتْ الهرَب قبل إتمام الزفاف.. وقد نفَّذتْ ذلك.. وراحتْ تجوبُ أنحاء «إنجلترا».. ولكنها كانت على اتصال دائم بعمها «نيكولاس» وهبَّ «بارني» يتعقَّبها، ويطاردها من مكان إلى مكان... لقد التقتْ «سامنتا» في خلال هروبها بكلٍّ من «بيل» و«بيتر» و «إدوارد».. فكيف كانت علاقتها بهم! وماذا كان موقف «بارني»؟ وكيف كانت نهاية المطاردة..؟

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.	قطر	10 ريال
سوريا	100 ل.	مسقط	1 ريال
الأردن	1.5 دينار	مصر	6 جنيه
السعودية	10 ريال	المغرب	30 درهم
الكويت	750 فلس	ليبيا	5 دينار
الإمارات	10 دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	1 دينار	اليمن	300 ريال

ISBN 995338046 -5
9 789953 380469

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Love´s Choices

تأليف
Billie Williams

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مرمورية

المطاردة

(711)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون : **666 212 9 961 00** – فاكس : **665 212 9 961 00**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org   www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعاً باتاً نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

– 1 –

ألقت «سامنتا» نظرة إلى الخارج عبر نافذة القطار وتنهدت بعمق، ثم رمقت المسافر الآخر في مقصورتها خشية أن يكون قد انتبه إلى حالتها، ولكنها رأته منهمكًا في قراءة الصفحة الاقتصادية من صحيفته اليومية منكفئًا على ذاته، على غرار غالبية المسافرين في قطارات الخطوط البريطانية. وكانت «سامنتا» في حالة من التحسّر على ذاتها، لكنها لم تكن مستعدة قط للاعتراف بها ولو في قرارة نفسها.

لقد بدا زواجها من «بارني» وكأنه أمر محتّم وطبيعي. كان الجميع يسلّم منذ زمن بعيد أنهما سوف يتزوجان يومًا ما حتى أن أيًا منهما لم يفكّر في البحث جديًا في المسألة. هذا لم يمنعهما من إقامة علاقات عابرة أحيانًا، كل على حدة حتى أن بعض أصدقائهم المشتركين لقبوا «بارني» بـ «زير» نساء. وكانت تربط بين والد «بارني» وعمها – وهو الوصي عليها – علاقات صداقة وعمل منذ سنين عديدة، ولقد كان «بارني» يعاملها معاملة طيبة منذ أيام الصبا، حين كانا يلتقيان في الإجازات وفي النزهات. صحيح أنه نجح مَرة، في أثناء عطلة أمضاها برفقة عمته، في أن يجعلها تضل طريقها وسط ريف «اسكتلندا» الموحش، لكنه كان أكثر أفراد مجموعة البحث عنها قلقًا، وعثر عليها مرتجفة من البرد، خائرة القوى، والدموع تنهمر بغزارة من عينيها، وقدم إليها دمية صغيرة عِوَضًا عما مرّت به، وهي لا تزال تحتفظ بها إلى اليوم. ولم يخبر أحدًا غيرها بأنه تعمد تضليلها، لكنها هي أيضا لم تتكلم في الموضوع مع أحد. اعتراها الخوف لدى اقتراب موعد الزواج فلاذت بالفرار. كانت

تتفادى التفكير في ردة فعل عمها «نيكولاس» وقد عرفته وصيًا كريم الأخلاق. وطيلة الثمانية عشر عامًا التي اهتم بها فيها، كانت تدرك أن لتسامحه حدودًا وقد بلغت الحادية والعشرين من العمر، وهي سنّ اعتاد «بارني» وصفها بأنها سن الهفوات. ها هي الآن تثبت له صحة ادعاءاته، وكانت تدرك أنها لربما أخطأت بالرحيل سرًا خاصة أنه قد تمّ إنجاز الترتيبات للزواج واختيار فستان الزفاف، والحقيقة أنها في خلال تجريب فستان الزفاف عند الخيّاط، رأت صورتها في المرآة وأدركت أن الأمور على وشك الإطباق عليها، فلاذت بالفرار. أخبرها الخيّاط بأنها تبدو رائعة الجمال في ثوب الزفاف، وكانت تعلم أنه على حق: وجهها المتناسق الخطوط، وعيناها الواسعتان ولونهما الأزرق الصافي تحت الرموش الطويلة الكثيفة كانت تلفت الأنظار أينما وجدت. وغالبا ما كانت ترخي شعرها الذهبي الأحمر الطويل، وترفعه أحيانًا في تسريحة متكلفة كتسريحتها اليوم التي تعطيها أكثر من عمرها. كان العديد من الرجال يعبرون لها عن إعجابهم بجمالها وذلك إما شفهيًا أو عن طريق الإيماءة بالنظرات. أما «بارني» فهو الرجل الوحيد الذي يعتبر جمالها مجانيًا. وهي الآن مصممة على أن تثبت له العكس. نظرت مجددًا من النافذة فتراءت لها محطة صغيرة وكأنها استراحة وسط ريف «ساري» المشمس فنهضت بسرعة ولا شعوريًا. لم تكن تدري وجهة سفرها حين وصلت إلى المحطة، بل كانت متلهفة على الابتعاد عن «ليتل دبتوك» وعن «بارني» واستعدادات حفل الزفاف، فابتاعت بطاقة لا تحدد نقطة الوصول. ترجلت من القطار ووضعت حقيبتها على الرصيف، واستقبلتها نظرة استياء رماها بها رجل يلوح براية، نظرت

حولها تتساءل عما ينبغي أن تفعل. لم تكن معتادة أن تعتمد على نفسها وأدركت أنه أصعب مما تصورت. نادرًا ما كانت تسافر بمفردها، ومتى فعلت كانت تكتفي بتحديد وجهة سفرها مسبقًا فيتمّ تحضير جميع الوسائل لرفاهيتها. وكانت مهمتها تقتصر عادة على طلب سيارة أجرة وإعطاء السائق عنوان المكان الذي تقصده، لكن الأمر مختلف تمامًا هذه المرّة فهي بمفردها وتجهل تمامًا المكان الذي ستنزل فيه. وقفت لبرهة تتأمل القطار الذي توارى متابعًا رحلته، وقد ساورها للمرّة الأولى منذ مغادرتها المنزل أنها ربما تهورت في اتخاذ قرارها بالفرار. لكن الندم لا يجدي نفعًا فتوجهت نحو المخرج مستسلمة لقدرها. التقت بالعديد من الناس وتساءلت عما إذا كان بإمكان أحدهم أن يرشدها إلى مكان تنزل فيه ولو ليلة واحدة. ونظرت إلى موظف البطاقات وابتسمت له في محاولة لكسب مودته وقالت:

– ترى، هل تستطيع مساعدتي؟ أشرق وجهه وفاض ثقة ثم أجابها قائلا:

– ربما استطعتُ يا آنستي. ماذا تريدين؟

– هل من فندق قريب؟ مدّ يده يحك مؤخرة رأسه حائرًا، ثم قال:

– لست أدري إن كان عندنا فندق بكل معنى الكلمة، إنما هناك نُزُل صغير يدعى «الميرميد» عند آخر الشارع، وهو يستقبل بعض النزلاء من وقت إلى آخر. لم تكن «سامنتا» متأكدة من استقبال النزل لها، لكنها استفسرت عن موقعه، ثم شكرت الموظف مبتسمة، وتوجهت نحو نزل «الميرميد». لم تجد أية صعوبة في العثور عليه، وفوجئت مفاجأة سارّة حين تبيّن لها أن مبنى النزل قديم جدًا وجميل، وتكهنت أنه يستقبل

المسافرين منذ أكثر من ثلاثمائة سنة وإن كان عددهم قد انخفض عن ذي قبل. حوّلها رجل ودود متوسط العمر إلى زوجته حين سألته عن غرفة، فاستقبلتها الزوجة بلباقة لم تخلُ من بعض الحذر. وفسّرت لها أنها غير معتادة استقبال الفتيات الآتيات بمفردهن، وبهذه الفجائية. وتُحجز الغرف عادة مسبقا وقد حالفها الحظ اليوم إذ ألغي حجز إحداها في الصباح. فقبلت «سامنثا» النقد غير المباشر الذي وجهته إليها المرأة، وحمدت المصادفات التي جعلتها ترفع شعرها عن عنقها، وإلا لظن الناس أنها مراهقة فارّة من البيت العائلي. لم تحاول تفسير ظروف مجيئها. وقرت لعب دور المتمردة على أكمل وجه، وعدم تبرير تصرفاتها لأيٍ كان. لم تستطع الاستحمام قبل العشاء، وذلك لعدم وجود كمية كافية من الماء الساخن، لكنها اغتسلت وبدلت ملابسها ثم هبطت السلم، وأدركت أن العشاء يُقدم في قاعة طعام عامة. كان المطعم قديم الطراز، لطيف الجو، يحتوي على العديد من الطاولات الصغيرة التي تتسع لشخصين أو لأربعة أشخاص. رأت «سامنثا» بعض نزلاء الفندق وقد جلسوا أزواجا يتناولون طعام العشاء، وخصصت لها طاولة لشخصين في إحدى زوايا القاعة بجوار نافذة أعلمتها صاحبة النزل أنها قد تضطر إلى مشاركة طاولتها مع أحد النزلاء إن غصّ بهم المطعم، فوافقت «سامنثا» بسرور. بدأ الناس يتوافدون على المطعم في أثناء تناولها العشاء، وأحست بشعور من الإثارة لكونها «فلتانة» كما يحب أن يدعوها «بارني». لكنها ما لبثت أن قطبت حاجبيها لتفكيرها في «بارني». ماالذي يدفع بها إلى التفكير دومًا فيما يقوله «بارني»؟ فهي قد رحلت لتبتعد عنه وليس لتستمر في تطبيق أقواله على كل ما تراه وتسمعه.

انتهت من تناول وجبتها الأساسية، ثم طلبت بعض الحلوى وجلست تنتظر وصولها. وراح نظرها يجول في رواد المطعم، متسائلة بتحفظ عن هوية كل منهم وطبيعة عمله، وعن العلاقات التي تربط بين بعضهم، وكانت هذه هوايتها المفضلة في أثناء تناولها الطعام في الأماكن العامة، وغالبًا ما كان «بارني» يسخر من عادتها هذه. آه «بارني»! عضت على شفتها بقوة وتشابكت يداها على الطاولة أمامها لتفكيرها به مجددًا وقررت أن تمحوه من ذهنها. أحضرت صاحبة النزل الحلوى، فتناولت «سامنثا» ملعقتها، ثم التفتت حين تراءى لها ظل غطى الطاولة، ورأت صاحبة النزل مجددا برفقة شخص يبغي تناول العشاء، وكانت تبتسم معتذرة حين سألتها:

– هل تمانعين في أن يشاركك هذا السيد طاولتك يا آنسة «داوليش»؟

وكادت أن تهز رأسها مبتسمة مشجعة صاحبة النزل حين قاطعها الدخيل قائلا:

– طبعًا لا تمانع، أليس كذلك يا «سامنثا»؟

– أنت! حدقت إليه «سامنثا» لبرهة مدهوشة، ثم أدركت أنه لحق بها أو بالأحرى تقفى آثارها وأحست بموجة من الغضب تجتاحها.

– بلى، أمانع! قالت ذلك ساخطة مما أربك المرأة التي راحت تنتقل بنظرها بينهما. تجاهل «بارني» اعتراض «سامنثا» برباطة جأشه المعهودة، وجلس إلى الطاولة وهو يهز رأسه معاتبا، ثم خاطب صاحبة النزل مطمئنا قائلاً لها:

– لا تقلقي، سوف أقبل بهذه الطاولة. هلا أحضرت لي لائحة الطعام؟

- طبعًا، طبعًا يا سيدي، هرعت تلبي طلبه ورغم ارتيابها كان قد أقنعها أنه يعرف الآنسة معرفة وثيقة وأنها سترحب به وإذ بالعكس. وهذا يحدث، ومن حق رواد المطعم أن ينفردوا بطاولاتهم ما دام ذلك ممكنًا. عادت إلى الطاولة وبيدها لائحة الطعام وبدت لها الآنسة منزعجة جدًا وقد تورّد خداها، بينما بدا القادم وكأنه غير معني بالأمر أبدا. بعد أن اختار طعام عشائه خاطب «بارني» «سامنتا» قائلا:

- أنا سعيد بكوني فاجأتك مفاجأة سارة. كنت واثقا بأنك ستسرين برؤيتي.

- أنت مخطئ لست سعيدة أبدًا برؤيتك. وعبرت ملامح وجهها عن استيائها الشديد.

- آه. ما بك يا «سامنتا»؟ مد يده باتجاه يدها وأوشك أن يلامسها لو لم تسحبها بسرعة وحدّقت إليه غاضبة ثم قالت:

- هربت للإفلات منك، وهل أنت مضطر إلى أن تلحق بي؟

- لست مضطرًا. لكن العم «نيكولاس» كان قلقًا لرحيلك المفاجئ فعرضتُ عليه اللحاق بك وإعادتك إلى المنزل. تناولت «سامنتا» القطعة الأخيرة من الحلوى وراحت تمضغها بتأنٍّ، ثم ابتلعتها قبل أن تجيبه بصوت هادئ:

- لن أعود إلى المنزل.

- آه. وهل قررت أن تهاجري؟ وانزعجت «سامنتا» لاستخفافه بكلامها فأجابته بصوت حملته بكلّ الوقار الممكن:

- لم أقل إني بصدد الهجرة بل كل ما أريده هو الابتعاد عنك.

- آه فهمت.

- أشك في ذلك. أجابته «سامنتا» بحدّة، ورمت ملعقتها على الطاولة بعنف مما لفت انتباه الرجل وزوجته الجالسين إلى الطاولة المجاورة، فتبادلا نظرات متهكمة وقطبا حاجبيهما.

- أحاول فهمك. ومدّ يده نحوها ونجح هذه المرّة في التقاط يدها وتابع:

- أجهل سبب غضبك مني. كانت تجهل السبب، لكنها اكتفت بالافتراض أنها مستاءة منه للحاقه بها واعترفت له:

- لست غاضبة فعلاً منك.

- لكنك لا تريدين رؤيتي. هل يمكنك أن تقولي لي السبب؟ حاولت إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير عما يخالجها، لكن بلا جدوى إذ كانت تجهل حقيقة شعورها، فكيف لها أن توضحها له؟ فقالت:

- رغبت في الرحيل. هذا كل ما في الأمر. ولستُ مضطرة إلى أن أوضح لك كل خطوة أقوم بها. أليس كذلك؟

- بلى!

- كلا! اعذرني الآن فإني مرهقة. لكن «بارني» ألحّ عليها محاولا الابتسام وقال:

- وما سبب إرهاقك؟ فلم تقطعي سوى بعض الكيلومترات في القطار وليس في عربة خيل. قطبت حاجبيها متسائلة للمرّة الأولى عن الطريقة التي استعملها للعثور عليها فسألته:

- وكيف علمت بمكاني؟ فابتسم من جديد وقال:

- آه! ليس من الصعب اللحاق بك يا عزيزتي، فالناس تلاحظك وخاصة الرجال منهم. وأدارت «سامنتا» وجهها رافضة مواصلة النقاش

وقالت:

– حسنًا، أرجو أن تتوقف عن ملاحقتي.

– متى تنتهي رحلتك؟

– هذا الأمر لا يعنيك.

– يعنيني، إن كنت مصممة على التغيّب يوم الزفاف.

– أريد... أريد البقاء وحدي.

– هل أنت مضطربة بسبب اقتراب موعد الزفاف؟ احمر خداها من غير أن تفهم سبب ذلك فنهضت عن كرسيها وقالت بثبات:

– كلا. إنما أريد التحقق من أمر قبل فوات الأوان. سُرّت بالأسلوب المسرحي الذي خرجت به من القاعة رغم يقينها أن «بارني» سيهزأ منها. وقررت ألا تمكث هنا مدّة أطول بعد أن علم بمكانها وفتشت عن صاحبة النزل لتوضح موقفها، وهذه بالطبع لن تسرّ بهذا التبديل، لكنها كانت عازمة على الرحيل إذ لاجدوى من البقاء بوجود «بارني». دفعت بعض المال تعويضًا عن الإزعاج الذي سببته للمرأة وغادرت النزل إلى المحطة. أوضحت لموظف البطاقات أنها تلقت مكالمة غير متوقعة تطالبها بالعودة، وراحت تتساءل عن سبب ابتسامته المتواطئة، فتذكرت ما قاله «بارني» عن سهولة اقتفاء آثارها. ورجحت أن يكون هذا الموظف قد ساعد «بارني» على إيجادها وأرشده إلى نزل «الميرميد» وهو الآن مسرور لمعاودتها الهرب. ركبت أول قطار وصل المحطة بغير أن تكترث لوجهة سيره لكثرة قلقها. واسترخت في مقعدها بعد أن أقلع القطار، وأيقنت أنها سوف تقضي نصف الليل في القطار عوضًا عن سريرها المريح في نزل «الميرميد». وكل ذلك بسبب «بارني». كاد النهار الصيفي

الطويل يشرف على نهايته حين توقف القطار في مدينة «برايتون». وتنهدت بعمق حين حملت حقيبتها مجددًا وترجلت من القطار. كانت تود لو استطاعت متابعة السفر إلى مكان أبعد غير أن القطار لن يكمل رحلته، وعزت نفسها بأن «برايتون» مدينة سياحية كبيرة مما يصعب على «بارني» العثور عليها فيها. هذا إن كان لا يزال مصممًا على اللحاق بها. فقد يقنعه فرارها من النزل بجدية أقوالها. أدركت «سامنثا» أنه من الصعب جدًا العثور على غرفة خالية في منتجع سياحي في فصل الصيف، وفي مثل هذه الساعة، أرشدها شرطي أخيرًا إلى فندق صغير، فركبت سيارة أجرة وقصدت الفندق الذي كان بعيدًا عن شاطئ البحر وخارج المدينة نفسها. استطاعت الحصول على غرفة بسهولة، وكانت صاحبة الفندق امرأة ودود وتعاطفت معها حين أخبرتها بأنها وجدت غرفتها المحجوزة في فندق آخر غير خالية، ثم أخطأت في اختيار القطار المناسب مما تسبب في وصولها في هذه الساعة المتأخرة. أرشدتها صاحبة الفندق إلى غرفة صغيرة لكن مريحة تطلّ على حديقة خلف المنزل. وقالت لها المرأة:

– تناسبك الغرفة تمامًا يا عزيزتي، وابتسمت «سامنثا» شاكرة ثم جلست على حافة السرير وقد غمرتها الراحة. بعد دقائق قليلة كانت مستسلمة لنوم عميق، لم تفق منه إلا لبرهة وجيزة على صوت خُطى في الباحة تحتها لكنها عادت إلى النوم مطمئنة البال، «بارني» لن يستطيع العثور عليها هذه المرّة مهما حاول. استيقظت في الصباح التالي وقد غمرت الشمس غرفتها، وتثاءبت بكسل ورمقت ساعة يدها: الساعة تجاوزت الثامنة. وتذكرت أن الإفطار يقدم بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف

كانت تشعر بجوع شديد ازدادت حدته في أثناء توجهها إلى الحمّام، إذ داعبت أنفها روائح البيض المقلي الشهيّ وقد فاحت من مطابخ الفندق. قررت المكوث في «برايتون» ليوم أو يومين، وربما لمدة أطول إن راقت لها المدينة لكنها عزمت على مكالمة عمّها وطمأنته، فمن الظلم إقلاقه بهذه الطريقة، وقد تستغل الفرصة لتطلب منه أن يردع «بارني» عن ملاحقتها وإلا هددته بالتواري نهائيا. استحمت وارتدت ثيابها، ثم هبطت السلم لتناول الإفطار فدخلت قاعة الطعام المزدوجة واستقبلتها صاحبة الفندق بابتسامة عريضة وقالت لها بحماس:

– المكان ضيق بعض الشيء لكني أضفت لك طاولة صغيرة أرجو أن تناسبك. ابتسمت «سامنتا» ابتسامة لم تخلُ من الاعتذار وقالت لها:

– غاب عن ذهني مدى انشغالكم في مثل هذا الوقت من السنة وأنا آسفة لهبوطي المفاجئ عليكم ليلة الأمس.

– آه! لا تدعي هذا الأمر يقلقك، من السهل عليّ التكيّف مع الوضع ولا أحب رفض أي شخص في مثل هذا الوقت من السنة، فمن المؤسف أن تفسد عطلة أحدهم بسبب التباس في الحجز.

– أشكرك على لطفك. وعادت المرأة منشغلة بعد بضع دقائق وقالت لـ«سامنتا»:

– والغريب أنه أتتني عنزة شاردة أخرى بُعَيد قدومك. قطبت «سامنتا» حاجبيها وتذكرت الأصوات التي سمعتها ليلة أمس وسألت صاحبة الفندق بارتياب:

– وهل وصل شخص آخر بعدي؟ وأومأت المرأة إيجابا وقالت:

– أجل قدم شاب ولا أقبل عادة إيواء عدد من الأشخاص يفوق طاقة

استيعاب الفندق، لكن قلبي لم يطاوعني على طرده فوضعته في غرفة ابني «جورج» وهو المكان الخالي الوحيد المتبقي، ولم يمانع قط و... انقطعت عن الكلام ونظرت إلى البعيد مبتسمة وملوحة بيدها بينما امتلأ قلب «سامنتا» باليأس.

– ها هو قادم الآن، لا مانع عندك أن يشاركك طاولتك، أليس كذلك؟ فهو شاب لطيف جدًا. أدركت «سامنتا» أن لا فارق إن مانعت أو لم تمانع، ورفعت نظرها لتشاهد ابتسامة «بارني» المشرقة تطل عليها. طوى قامته الطويلة وجلس إلى الطاولة ولاحظت «سامنتا» نظرات الفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة تلحق بكل حركة من حركاته. كان يلفت الانتباه وخاصة انتباه فتاة تمضي إجازتها وفي ذهنها شيء واحد، لكن «سامانتا» لم تستطع كبح جماح موجة الغضب الذي اعتراها حين التفت نحو الفتاة وابتسم لها شاكرًا إعجابها به. كان يبدو وكأنه رجل اعتاد تمضية إجازاته خارج البلاد، وكان غالبًا ما يفعل ذلك، واكتسبت بشرته لونًا أسمر داكنًا يبرز بياض ابتسامته شبه الدائمة، وقد ورث عن جدّة إسبانية عينين عسليتين وشعرا أسود أضفت عليه ملامح شرقية فاتنة وهو يجيد استعمال سحرها متى أراد.

– صباح الخير يا «سامنتا»؟ حذّرها بابتسامته من القيام بأي عمل متهوّر، وقاومت رغبتها في النهوض حالاً والإحجام عن تناول الإفطار. لكن شدّة جوعها وكرهها للمشادات العامة جعلاها تعدل عن ذلك. وهمست بحدّة:

– إني أكرهك. فضحك ثم قال:

– تعالي يا عزيزتي ودعينا من هذه المأساة.

– ليست مأساة، إنما لا أقبل أن تلحق بي عبر البلاد وكأني مجرمة. وقال لها بصوت عبر عن قرب نفاد الصبر:

– القلق والمشاكل التي تسببينها لنا هي من باب الإجرام. تمنت «سامنتا» لو كانا في مكان منعزل حتى تستطيع التعبير عن سخطها لكنها تماسكت وقالت:

– لا شيء يدعو للقلق. أرغب في العيش وحدي لبعض الوقت.

– بعيدًا عني؟

– نعم.

– لماذا؟ لم تستطع تفادي نظرته لكنها انتبهت في الوقت نفسه إلى أن الفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة كان تتفحصهما باهتمام بالغ، وكأنها اكتشفت أخيرًا أنهما يعرفان بعضهما.

– وما ذنبي يا «سامنتا»؟ صمتت «سامنتا» برهة وقد اشتبكت يداها على الطاولة أمامها ثم اعترفت قائلة:

– لست أدري بالتحديد. سألها بلطف:

– ألا تريدين الزواج بي؟ التزم الصمت إلى أن قدم الإفطار فنظر إليها وابتسم ابتسامة عبرت عن بعض التفهم لدوافعها ثم قال لها:

– ألا تظنين أن مراجعة حساباتك أتت متأخرة بعض الشيء؟ عضت «سامنتا» على شفتها لكثرة اضطرابها ثم قالت:

– إنه... آه لا أعرف كيف أوضح لك. أشعر بأنه من الأفضل ألاّ أتزوجك. أو على الأقل ما دمنا عل هذه الحال.

– وما بنا؟ شعرت «سامنتا» باحمرار خدّيها بشدّة ولكنها فوجئت بأفكارها تتجه نحو الفتاة المجاورة، وتتساءل عن مدى تقييمها

لوضعهما.

– أعني، آه لسنا كغيرنا من المقبلين على الزواج، أليس كذلك؟

– وفيمَ نختلف عنهم؟ أحست أنه يتعمد عدم التفهم لإرباكها وقالت:

– أعني أننا لسنا... لسنا... فوجئت بالصعوبة التي لاقتها للتعبير له عن أسباب ترددها فالتكلم عن الحب سهل جدًا متى تأكد الإنسان من وجوده، لكنها أدركت لتوها أنه الشيء الذي تفتقر إليه علاقتهما. لم يتفوّه «بارني» مرّة في حياته بكلمة أحبك وهي لم تفكّر فيه سوى كونه شخصا اعتادته واعتادت فكرة الزواج به تحقيقًا لتوقعات العديد من الأصدقاء. وسألها وكأنه تكهّن ببعض ما يجول في ذهنها:

– ماذا، تحاولين إخباري يا «سامنتا»؟

– أعني، أعني أنك لم تغازلني قط. لم يستطع إخفاء الابتسامة لسماعه لفظة المغازلة وقال بصوت ناعم:

– آه فهمت. تريدينني أن أغازلك أهذه هي المشكلة؟

– وهل هذا بالطلب المستحيل؟ إن معظم الفتيات يحظين ببعض الاهتمام من خُطّابهن، أليس كذلك؟ ولم أحرم من ذلك أنا؟

– عليّ إذن أن أسرع في تقديم باقات الزهور وعلب الحلوى إليك وأركع على ركبتي أكلمك عن لوعة حبي لك، أهذا ما يجول في ذهنك؟ أيقنت «سامنتا» لتوّها أنه يهزأ بها وشعرت برغبة جامحة في صفعه رغم الفضيحة والفتاة المجاورة لكنها تماسكت وقالت له:

– إني أكرهك.

– هذا الكره ليس قاعدة فضلى لزواج سعيد.

– أنا سعيدة لموافقتك رأيي، ولربما توقفت الآن عن ملاحقتي، وتركتني

أسافر بمفردي حتى تتبلور الأمور في ذهني.

– وأترك العجوز «نيكولاس» المسكين يتلوع قلقا عليك لا، لا يمكنني ذلك.

– يمكنك ذلك. فلست طفلة وبإمكاني الاهتمام بذاتي على أفضل وجه. ولا داعي للعم «نيكولاس» أن يقلق من أجلي وسوف أطمئنه عن حالي بين الحين والآخر.

– وما الذي تنوين عمله في أثناء رحلتك هذه عبر البلاد؟

– الاستمتاع بكل ما حولي، ولمَ لا؟

– وحتى يتحرّش بك كل الرجال الذين يؤمون المنتجعات السياحية بحثًا عن النساء، كهذا الجالس في الزاوية هناك الذي لم يتوقف عن رميك بنظرات هائمة منذ لحظة دخولك إلى القاعة. رفعت «سامانتا» كتفيها غير مبالية، لم تكن قد لاحظت الرجل قط وسرها أن تكون ممسكة بزمام الأمور في هذه اللحظة وقالت لـ «بارني»:

– ربما... ولمَ لا؟ ما الفرق بينه وبين تلك الشقراء السمينة التي تغازلها بنظراتك؟ وابتسم «بارني» هازئًا وقال:

– أراك تغارين منها. وجاهدت نفسها كي لا تصفعه ولمست لأول مرّة قدرته على إغاظتها أحيانًا فقالت له:

– لا أغار. وهز رأسه ثم ابتسم مدعيا بعض الحزن فقال لها:

– إذن فالجسور فعلاً مقطوعة بيننا. لو كنت تشعرين بأي شيء تجاهي لكنت مستاءة من مغازلتي لها. وقالت بسرعة:

– لكن هذا الوضع ليس جديدًا بالنسبة إليّ. فلقد أخبرني «مارتن» و«سيلفيا» بأنك لا تضيع وقتك مع النساء في غيابي، فلم تقلقني شقراء

تزيد أو تنقص! ورمقها بارتياب ثم قال بعد لحظة:

– آه. فهمت. لم أفكر في حياتي أنك تصغين إلى هذا النوع من الأحاديث المفترية والتافهة يا عزيزتي. واحمر خداها وتمنت لو لم تتهوّر في الإجابة وتعطيه هذا الانطباع الخاطئ عن ذاتها فقالت:

– اطّلعت على وقائع ولم أبال قط لنشاطاتك. ونظر إلى وجهها المحتقن والغاضب ثم ابتسم وقال:

– قط؟

– قط، أنت مستحيل يا «بارني»، أرفض الجلوس هنا والخوض في نقاش معك. افعل ما تشاء فإني راحلة ولا يهمني أبدًا ما تفعل ما دمت بعيدًا عني.

– لا تمانعين إذن في مجالستي لجارتي الشقراء اللطيفة هذه؟ ولمعت عيناه بسخرية فحدقت إليه «سامنتا» وصاحت:

– افعل ما تشاء فأنا لا أبالي.

– حسنًا. رمقته بارتياب ثم سألته:

– هل تعني أنك ستكف عن ملاحقتي؟. ابتسم قائلاً:

– لم أقل هذا يا عزيزتي.

– هلا توقفت عن مناداتي «عزيزتي» لم تكن تستعمل هذه اللفظة قط من قبل، وهأنت استعملتها عشر مرّات على الأقل منذ البارحة.

– هل أنت متأكدة؟ لم يخطر ببالي أن أعدها، ولكنك طالبتني بمغازلتك يا عزيزتي فلربما هذه هي الخطوة الأولى. لم تجبه «سامنتا» بل نهضت بسرعة من كرسيها ومشت بخطى ثابتة إلى باب القاعة، وقد لحقت بها نظرات صاحبة الفندق الفضولية والقلقة في آن واحد. وأدركت «سامنتا»

أن رحيلها سوف يشجع حتما الفتاة الشقراء على استغلال الفرصة السانحة لها، لكن لتفعل ما تشاء فـ «سامانتا» متأكدة أنها غير مبالية أبدًا بمغامرات «بارني» العاطفية.

– 2 –

ما لبثت «سامنتا» أن اكتشفت أن حياة فتاة بمفردها في منتجع سياحي كـ «برايتون» مليئة بالمحاذير، فهي تعطي انطباعا خاطئا عن نياتها حتى في أثناء التنزه على الأقدام لبعض الوقت. وبعد عشرين دقيقة على سيرها في الشوارع، كانت عيون عشرين رجلاً قد عرضت عليها مئات المشاريع. لكن على الرغم من ذلك شعرت بأن مزاجها المتوتر في هذه اللحظة يتوافق والجوّ السائد، وإن كانت تكرهه في الأحوال العادية. تأملت الفنادق الكبرى والفخمة المواجهة للبحر فأعجبت بأحدها وقررت الدخول والاستفسار عن غرفة. اقتربت من موظفة الاستقبال وهي تبتسم آملة. فأجابتها الموظفة أن هنالك غرفة لشخص واحد خالية بسبب إلغاء الحجز. فدفعت «سامنتا» عربونًا عن الغرفة ووعدت الموظفة أنها سوف تحضر حقائبها لاحقًا. وبعد أن شكرت المرأة هبطت سلم مدخل الفندق، وعادت إلى التنزه على الجادة المحاذية للشاطئ وقررت أن تذهب لإحضار حقائبها، ثم تتناول الغداء في فندقها الجديد. لكنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى شعرت بيد تمسك ذراعها فجأة وتوقف سيرها. ذعرت برهة لفجائية اللقاء هذا وكادت تتنفس الصعداء حين أدركت أنه «بارني»، لكن سرعان ما انتقلت من الذعر إلى الغضب،

وسحبت ذراعها من قبضته ثم قالت:

– كان عليّ أن أفهم أنه أنت.

– وهل خاب أملك؟ رمقته بطرف عينها لبعض الوقت محاولة إحباط عزيمته لكنه ضحك وقال:

– حسنا. لا تنظري إليّ بهذا الشكل. لحسن حظك أنني أنا وليس غيري من أولئك الرجال الهائمين حولك. إذا كان قصدك أن تعلقي بشباك أحدهم؟ إن كان هذا قصدك يا عزيزتي، فمن الأفضل لك أن تعتمري قبعة كتب عليها «عانقني بسرعة» أو أية عبارة ترحيب أخرى!

– وهل تظن أني قد أقدم على عمل كهذا؟

– إنك تحاولين جهدك على حملي على تصديق هذا، وأظن أنه من الأفضل لك أن تأتي وتتناولي الغداء برفقتي قبل أن تتفوّهي بجملة سوف تندمين عليها لاحقًا. وقبض على ذراعها بقوة ودفعها إلى السير وسط الجادة المزدوجة، لكنها أفلتت منه مجددًا، وقالت له بثبات:

– لن أتناول الغداء معك بل سأتناوله في... وتوقفت لتوّها متفادية إعطاءه عنوانها الجديد وخفضت عينيها. نظر إليها «بارني» بصمت لبعض الوقت وتساءلت عما يجول في ذهنه في هذه اللحظة، ثم سمعته يقول:

– أرى أنك لم تضيعي وقتك، أليس كذلك؟ وفهمت أخيرًا قصده، لقد ظنّ أنها على موعد مع شخص التقته في الصباح. وهو فعلاً يسيء الظنّ فيها، وبذلك لن يستطيع لومها إذا ما جارته في رأيه فيها. أدارت رأسها بتحدٍّ ونفضت شعرها الذهبي الأحمر عن جبينها وقالت:

– لا يتطلب الأمر وقتًا طويلاً.

– هكذا يبدو لي. خيّل إليها أنها لمست مسحة من الغيرة في نبرته، ولم يكن «بارني» هكذا في حياته وخاصة بالنسبة إليها. وسألها:

– هلا قلت لي أين عثرت عليه؟ وتمهلت «سامنتا» قبل الإجابة ثم قالت:

– في... في فندقي الجديد.

– آه، فهمت لقد هربت مني مجددًا، أليس كذلك؟

– طبعًا.

– آه... آه. تفحصته «سامنتا» بارتياب وسألته:

– فيم تفكر الآن؟ ابتسم ساخرًا ثم ضحك وقال لها:

– لا شيء. ومتى ستغادرين فندقك الحالي؟

– إني على وشك الذهاب لإحضار حقيبتي ولست أحتاج إلى مساعدتك، ولا أريدك أن تلحق بي مرّة أخرى.

– آه. لا أنوي أبدًا التدخل بينك وبين صديقك الجديد. راحت تتساءل عن سبب اختلاقها على هذا الرجل وموعدها معه فلن يتأخر «بارني» عن اكتشاف كذبها وباشرت تقول:

– أنا... أنا. لكنها لم تستطع المتابعة فهي لم تعهد الكذب، وتعلم أن «بارني» يملك موهبة خارقة تخوله معرفة الحالات التي تكذب فيها من غيرها، وخاطبها قائلاً:

– إن كنت ترفضين مساعدتي لك على إحضار حقائبك فمن الأفضل لي أن أبحث عن مكان أتناول فيه غدائي. وسمعت نفسها تعتذر منه لا شعوريا:

– أنا آسفة.

– وممَّ أنت آسفة؟

– من... آه دعني من هذا الأمر. وهرعت إلى موقف سيارة الأجرة واطمأنت إلى أنه لن يلحق بها مجددًا. كانت قاعة الطعام في الفندق الجديد أوسع من الفندق الأول، ووجدت نفسها مجددًا جالسة بمفردها إلى طاولة لشخصين، إلى أن بلغت الجزء الثاني من وجبتها إذ رفعت نظرها ورأت ابتسامة مترددة تطل عليها. كان الرجل حديث السن يكبرها بسنة أو سنتين، وسيم الملامح هادئ الشخصية. بني الشعر أزرق العينين، راح ينظر إليها وكأنه يعتذر عن تطفله. ابتسمت له «سامنتا» تشجعه فجلس.

– لم أدر أنني سأحظى ببعض الرفقة أخيرًا؟ ما هذا المكان الذي وضعوك فيه. وضحكت «سامنتا» ثم قالت:

– لا أدري كيف استطاعوا تدبير هذا المكان لي. أظن أن الحظ حالفني لقد وصلت في الوقت المناسب بعد أن أُلغي حجز إحدى الغرف.

– يا لحسن حظك! وابتسم ابتسامة ودية ولطيفة ثم تابع يقول لها:

– هل تسمحين لي أن أعرّفك بنفسي؛ ومد يده فوق الطاولة وقال:

– من الصعب أن تصدقي لكني أنا فعلاً «بيل سميث». وابتسمت له «سامنتا» بينما شعرت بأنه أبقى يدها بين يديه مدّة أطول مما تفرضه مجرد اللياقة، ثم قالت:

– «سامنتا داوليش».

– «سامنتا»... أحب هذا الاسم ولم أتعرف إلى شخص يحمله من قبل.

– لا أظن أنني تعرفت إلى شخص اسمه «بيل سميث» من قبل. ضحكا معًا. وفكرت «سامنتا» في أن الأمور بينهما تسير على أحسن وجه.

قبلت دعوة «بيل سميث» للتنزه على التلال الجنوبية للمدينة دون تردد واعترفت لنفسها أنها نسيت «بارني» تمامًا. أخذها «بيل سميث» في سيارة ضخمة ومريحة، وهو أسلوب السفر الذي اعتادته وتفضله على خطوط السكة الحديدية البريطانية. ثم عادا إلى الفندق لتناول العشاء. رفض صديقها الجديد الابتعاد عنها، خاصة بعد أن انتبه إلى نظرات أحد النزلاء التي هامت حولها طيلة العشاء، فوافقت «سامنتا» على تمضية السهرة برفقته أيضًا. رقصا معًا ثم تمشيا على الشاطئ يتحادثان في شتى المواضيع، وعرفت «سامنتا» أخيرًا أنه «اسكتلندي». عادا إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل وشعرت «سامنتا» بمزيج من السعادة والإرهاق. ودخلت غرفتها وأضاءت النور وإذا هي تقف مدهوشة وتحبس أنفاسها. رأت علبة من الحلوى على الطاولة المجاورة لسريرها، وقد تسبب واضعها في إزاحة سماعة الهاتف من مكانها، وكانت الحلويات من النوع الذي تفضله. أما السرير فقد اكتُسي بباقة من الزهور عبّقت جو الغرفة بعطرها. وقفت لثوانٍ عدّة تتأملها، وتكهنت بهوية مرسلها، لكن قبل أن يتسنى لها التحقق من ذلك سمعت قرعًا على الباب. كان «بيل سميث» هو الطارق وبدأ يعتذر إليها حين فتحت الباب وكأنه ظن أنها منزعجة لقدومه وتطفله عليها وهمس قائلاً:

– إني آسف أن أطرق بابك في مثل هذه الساعة من الليل، ولكني تلقيت لتوي مكالمة من مكتب الاستقبال تعلمني أن هاتفك مشغول وهم عاجزون عن الاتصال بك، وقد علموا بقدومنا سويًا فأرادوا إخبارك بأنك تلقيت بعض الأغراض في المساء. وتخطاها بنظرة باتجاه الأزهار ثم قال:

– آه. لا بد من أنك علمت بالأمر.

– نعم شكرا لك. قطب حاجبيه لبرهة وكأنه مستاء للفكرة، ثم قال:

– لا بدّ من أن يكون قد أرسلها أحد المعجبين. ابتسمت «سامنتا» وقالت:

– ليس فعلاً. بل أظن أنه صديق كنت على وشك أن أقرأ البطاقة حين طرقت بابي. وألقت نظرة لا شعوريا إلى البطاقة، وتعرفت بسهولة على خط «بارني» العريض والجريء. وقرأت بصمت ما كتب على البطاقة. «عزيزتي، لم تبق سوى أيام قليلة تفصلنا عن الثاني عشر من الشهر ياحبيبتي». الإمضاء «بارني». قلبت البطاقة بسرعة بين أصابعها لكنها لم تستطع منع «بيل سميث» من قراءة الكلمات، وسمعته يقول:

– إنه أكثر من صديق قديم طبعًا. تنهدت بعمق وكأن مشاكل الدنيا جميعها تراكمت على كتفيها قائلة:

– إنه. إنه نوع من حب قديم. لكنه يمتلك روح فكاهة غريبة.

– آه. فهمت.

– شكرًا لقدومك يا «بيل»، رفع كتفيه وبدا أقل سعادة من قبل حين رافقها إلى غرفتها وقال:

– لقد فعلت ما طلب مني. فهم عجزوا عن إخبارك في أثناء صعودنا إلى الغرف، وأرادوا التأكد من إيصال الخبر إليك.

– شكرا لك مجددًا يا «بيل». تردد لحظة ثم قال:

– أما زلت على رأيك في مرافقتي إلى المنتزه صباح الغد؟

– طبعًا يا «بيل».

– حسنا. سمعته يتنفس الصعداء ثم قال:

– خشيت للحظة أن يفسد تدخل هذا الرجل مشاريعنا.

– لا ، أبدا. إني مشتاقة إلى مرافقتك. عاد «بيل» إلى غرفته وأقفلت الباب بعد رحيله وهي تتردد بين الغضب والابتسامة. أدركت أنه بات من الصعب عليها التخلص من شبح «بارني» بعد أن شرع بالتصرف على هذا النحو. وتناولت الأزهار وتنشقت عبيرها الممتع، واعترفت لنفسها أن «بارني» يعرف حقًّا مدى شغفها بأزهار الزنبق والريحان. هبطت «سامنتا» إلى صالة الطعام في الصباح التالي لتناول الإفطار وتفحصتها ببعض القلق لكنها لم تجد أثرًا لـ «بارني». كانت تخشى أن يكون قد لحق بها بعد أن عرف مكان وجودها. توقعت أن تجد شيئًا إلى جانب طبقها لإدراكها أن «بارني» مصمم على متابعة التودد إليها، وارتاحت حين لم تجد أية أزهار أو هدايا أخرى. لكنها حين عادت إلى الفندق لتستعد للغداء، ناولها موظف الاستقبال علبة صغيرة وأخبرها مبتسما بأن رجلاً قد تركها لها في أثناء غيابها. احتارت «سامنتا» بين قبول الهدية أو رفضها لكنها كانت فضولية لمعرفة محتواها فأخذتها إلى غرفتها وفتحتها. كانت الهدية عبارة عن مِنجَد من الذهب الدقيق السبك ينفتح ليظهر صورة شمسية غير ناجحة لـ «بارني» ظنت أنه أخذها خصيصا لهذه المناسبة. تأملت الصورة دقائق وعجزت عن السيطرة على ارتجاف أناملها في أثناء قراءة الكلمة المرافقة للصورة والتي كتبها «بارني» بخط يده قائلا:

– مع حبي الخالص. «بارني» هزت رأسها وأعادت طيّ الورقة ووضعتها والمنجد في العلبة الجلدية ثم في حقيبة يدها، ولم تزل مترددة بين قبول الهدية ورفضها. لم تخبر «بيل سميث» بشيء عن الهدية حين لاقاها، لكنه سألها عن أخبار ما سمته بحبها القديم. فاكتفت بهز رأسها،

وانتقلت بسرعة إلى موضوع آخر. سألها في أثناء العشاء إن كانت راغبة في الرقص ووافقت «سامنتا» بسرعة فهي شغوفة بالرقص، لكن «بارني» لا يشاركها شغفها هذا فنادرًا ما كانت ترقص معه.

– سوف يسعدني أن أرقص. وابتسم مسرورًا ثم قال:

– في مكان لطيف ورومانسي. أرجو ألا تظني أنني أستعجل الأمور لكن لم يبق أمامي سوى يومين قبل عودتي إلى المنزل.

– تسكن في «اسكتلندا»، أليس كذلك؟ أومأ إيجابا ثم قال:

– في قرية صغيرة تدعى «بارشيل» لو ذهبت إليها لوجدت أنها قرية مملَة للغاية. لكن «سامنتا» هزت رأسها وقالت:

– أنا متأكدة من العكس. وأنا أحب «اسكتلندا» كثيرًا ولقد أمضينا العديد من إجازاتنا فيها حين كنا أصغر سنًا.

– برفقة عائلتك؟ خفضت عينيها مرتبكة فهي لا تحب الكذب لكنها ترفض التطرق إلى موضوع «بارني» مجددا فقالت:

– مع بعض الأصدقاء. انحنى «بيل» باتجاهها وغطى أصابعها وهمس:

– أرجو أن تأتي لمشاهدة «بارشيل» يومًا فإن كنت تحبين «اسكتلندا» فسوف تعشقين «بارشيل». ابتسمت «سامنتا» وقد طرأت فكرة مفاجئة وجريئة على ذهنها فقالت:

– ربما أتيت في المستقبل القريب. مضى وقت طويل على زيارتي الأخيرة لـ «اسكتلندا».

– هل أنت جادة؟

– نعم.

– لكن لم أكن متأكدا... هل لديك وظيفة أو عمل يضطرك إلى العودة؟

– كلا. فأنا ما يسمى عادة بسيدة متفرغة، وفي الوقت الحاضر أكتفي بالسفر عبر البلاد على متن قطارات الخطوط البريطانية. كان ما يزال محتفظا بيده على يدها، لكنه راح ينظر إلى غطاء الطاولة الناصع البياض ثم سألها أخيرا:

– هل تقبلين العودة برفقتي نهار الخميس؟ وتسارعت خفقات قلب «سامنتا» كالمجنونة بينما فكرت في العودة فهي تجهل كل شيء عن هذا الرجل. صحيح أنه لطيف جدًا وجذاب وصريح لكن من الغباوة أن ترافقه إلى «اسكتلندا» بناء على معرفة يومين فقط. وتمتمت مترددة قائلة:

– لا أدري! شدد قبضته على يدها وقال لها متوسلاً:

– أرجوك. لا تكوني فكرة خاطئة عنّي، فعائلتي موجودة هناك وأنا متأكد أنها سترحب بك. نادرًا مايزورنا أحد.

– لكن هل أنت متأكد أنهم لن ينزعجوا لمجيئي؟ بدأت تميل أكثر وأكثر نحو قبول الدعوة خاصة أنه لن يسهل على «بارني» اللحاق بها. رفع «بيل سميث» كتفيه العريضتين وقال:

– ليس هناك سوى والدي وابن عمي. وهما أبعد مما يكون عن النّساك ونادرًا ما نتلقى زيارة امرأة باستثناء السيدة «ماغس» وهي التي تعنى بشؤون المنزل.

– تبدو لي الفكرة رائعة.

– وهل تأتين؟ نظرت إليه «سامنتا» وقد ساورها الشك، على الرغم من إغراء فكرة مرافقته وقالت له مبتسمة بحزن:

– لست متأكدة من صواب فكرة ذهابي معك فمعرفتي بك تعود إلى يومين فقط يا «بيل»، وقد يكوّن الناس، وعائلتك بصورة خاصة انطباعًا خاطئًا عني. أمسك يدها بأسلوب صريح هذه المرّة، والتفت أنامله حول راحتها واعترف لها:

– هذه هي المرّة الأولى التي أدعو فيها فتاة لمرافقتي إلى المنزل يا «سامنتا»، أنت شخص فريد بالنسبة إليّ. وابتسمت ثم قالت:

– وأنت لطيف جدًا. لم تنتبه إلى تقطيب حاجبيه امتعاضًا للصفة التي نعتته بها. أخبرها «بيل سميث» في الصباح التالي بأنه مضطر للذهاب إلى «لندن» للبحث في بعض القضايا المتعلقة بعمله، والبقاء فيها النهار بكامله ولكنه وعدها بالتفرّغ لها نهار الغد بكامله واقترح قائلا:

– بإمكاننا التنزه غدًا في التلال مرّة أخيرة. ما رأيك؟

– عظيم. كانت الشكوك قد بدأت تساور ذهن «سامنتا» حول صواب قرارها بمرافقة «بيل» إلى «اسكتلندا» لكنها كانت قد حصلت على عنوان منزله وأخبرت عمها «نيكولاس» بأنها سوف تقصده قريبا. شعرت بأن ابتعادها عن «بارني» يتيح لها بلورة الأمور في ذهنها واتخاذ القرار النهائي حول قضية زواجهما، وهي ترفض حاليًا فكرة الزواج رفضًا قاطعًا. وقد أخبرت العم «نيكولاس» بذلك، لكنها كانت تشعر بحنين غريب إلى المنزل، والعيش بالقرب من «بارني»، وتجد صعوبة في تجاهل هذا الإحساس بخفة روح. اعترفت في قرارة ذاتها أنها اشتاقت إلى «بيل» في أثناء تغيبه وراحت تتنزه بمفردها على الشاطئ جاذبة أنظار الشباب كالعادة بفستانها الأزرق الفاتح اللون الذي كان يبرز بشرة ذراعيها وظهرها السمراء الناعمة، وبشعرها الذهبي الأحمر المتدلي على كتفيها.

رأت مجموعة من الشباب يتجهون نحوها، وسمعت دوي صفارات الإعجاب التي أطلقوها نحوها، لكنها لم تجد سبيلاً لتفاديهم، وشعرت بالحرج الشديد حين اقتربوا منها وأمطروها بملاحظاتهم البذيئة. شعرت فجأة بذراع تلتف حول خصرها، ورأت تعابير وجوه الشباب الظافرة تتحول فجأة إلى مرارة ساخرة، وتنفست الصعداء لإدراكها لا شعوريًا أن «بارني» هو الذي أنقذها من هذا الموقف وسمعته يسألها:

– ترى ما الذي حدث لصديقك هذا الصباح؟

– تعني «بيل»؟ لقد ذهب إلى العاصمة لإنجاز بعض الأعمال.

– وهل اسمه الحقيقي «بيل سميث»؟ ثم ضحك لكن «سامنتا» عبست في وجهه وقالت:

– أجل. ولا أرى ما هو مضحك في اسمه. فهو اسم كغيرة.

– سمعت أنه «اسكتلندي».

– يبدو لي أنك اتصلت بالعم «نيكولاس».

– نعم، فقد كلمني هذا الصباح. سارا معًا لبضعة أمتار، وراحت تتساءل عما إذا كان لدى «بارني» اعتراض على ذهابها إلى «اسكتلندا» مع «بيل» فمن المؤكد أن العم «نيكولاس» أخبره بشيء عن مشروعها. ولم يخطر في بالها إزاحة يده عن خصرها. وقال لها فجأة:

– أود التحدث إليك. ودفعها إلى مبنى صغير يحتمي فيه الناس من المطر عادة، وقال لها:

– اجلسي. لم يترك لها المجال للعصيان فجلست في زاوية من المبنى ويداها متشابكتان على حضنها تتفادى النظر إليه وكأنها خائفة منه. تراءى لها وجهه الداكن، ولمست فيه مسحة من القساوة نادرًا ما رأتها،

وأمسك بيدها وأرغمها على النظر إليه قبل أن يتكلم قائلا:

– هل أنت جادة في قرارك بمرافقة هذا الرجل إلى «اسكتلندا»؟ عضت «سامنتا» على شفتها لقساوة سؤاله وقالت:

– نعم، نعم، أنا جادة.

– هل جننت؟ أنت تجهلين كل شيء عن هذا...

– إن كنت ستطلق عليه أسماء على هواك، فلن أتكلم. وقطبت «سامنتا» حاجبيها محاولة إخافته لكنه ضحك وقال:

– لا تحاولي إخافتي بعبوسك في وجهي. تشبهين قطة صغيرة لا تخيف أبدًا.

– اتركني وشأني. وسحبت يديها من قبضته.

– إن كنت عازمة على السفر إلى مجاهل البلاد برفقة غريب أظن أن هذا من شأني أيضًا. فلي بعض الأفضلية عليك.

– لم يعد لك أي أفضلية عليّ.

– آه فهمت. حدق إليها بثبات لبعض الوقت وقد فاضت عيناه الداكنتان جديّة ثم قال:

– حسنًا، لكنك لن تفلتي مني بهذه السهولة يا عزيزتي، فليس من عادتي التنازل عن أي شيء بهذه السهولة.

– أي شيء؟! أنت تنعتني بالشيء وكأني جزء من مؤسسة «داوليش وفوستر»

– نعم.

– أنا لست شيئًا يتداوله الناس كأسهم الشركة، أريد اتخاذ القرار بذاتي يا «بارني»، وأرفض الانجراف مع مخططات عمي ووالدتك التي تدعو

WWW.REWITY.COM

إلى زواجنا من أجل تأمين مستقبل الشركة. نظر إليها باستهجان وكأنما لم تخطر بباله هذه الفكرة أبدًا وسألها.

– وهل هذا هو المنظار الذي تقيّمين من خلاله الأمور؟

– نعم، طبعًا. فالكل يتوقع منا أن نتزوج منذ أن بلغت سن الرشد ولقد سئمت هذه الحال.

– يبدو لي أني اعتُبرت أيضًا حجرًا من أحجار اللعبة، في هذه الحال ينطبق عليّ ما ينطبق عليك.

– إذن ينبغي أن تشكرني لإتاحتي لك الفرصة للإفلات من هذه اللعبة. ومد يده نحو يديها وأمسكها من غير أن تمنعه من ذلك، وشعرت بحاجتها الشديدة إلى البكاء في هذه اللحظة وسمعته يقول لها بصوت هادئ:

– أظن أني لست راغبًا في الإفلات منها. صمتت «سامنتا» للحظة فيما تسارعت خفقات قلبها كالمجنونة، وتمنت لو رافقت «بيل» إلى «لندن» في الصباح وتفادت بذلك هذا اللقاء والشكوك التي ولّدها. لكنها سمعت نفسها تقول ببطء.

– إني ذاهبة إلى «اسكتلندا» برفقة «بيل» يا «بارني». أنا أحتاج إلى التفكير في العديد من الأمور.

– وهو لن يتوانى عن استغلال الفرصة التي سنحت له. آه! يا «سامنتا»، لا تتصرفي بهذا المقدار من الحماقة.

– كف عن التصرف وكأنك مالك أمري. سأرافق «بيل» وهذا قرار نهائي. نهضت عن كرسيها بينما مكث «بارني» ينظر إليها بعينين قاسيتين فاضتا عزمًا وقال لها:

– ليس نهائيًا يا عزيزتي، لم أنته منك بعد.

- 3 -

– سوف أتوقف، عفوا نتوقف، لقضاء الليل في بلدة «بوينز» هل تعرفينها؟ كان «بيل» يتكلم في أثناء مرورهما على طريق عصفت بها الرياح.

– إنها في منطقة البحيرات، أليس كذلك؟ كانت «سامنتا» قد نسيت أن الرحلة إلى «اسكتلندا» تستغرق أكثر من يوم وتقع منطقة البحيرات في منتصف الطريق، ويرتاح فيها معظم المسافرين إلى «اسكتلندا».

– إنها قرية رائعة وهي أكثر هدوءًا من غيرها في منطقة البحيرات وفيها مناظر طبيعية لا تقل جمالاً عنها.

– آه! مضت سنوات عدّة على زيارتي الأخيرة للبحيرات. وأظن أنها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى «بوينز». صمتت برهة تفكر في أنه لابد من أن يكون «بيل» قد حجز مسبقًا غرفة له فيما قد تجد صعوبة في إيجاد غرفة لها فقالت:

– أتساءل، إن كنت سأوفق في العثور على غرفة لنفسي إذ تُحجز الغرف مسبقًا عادة أليس كذلك؟. التفت «بيل» للحظة نحوها، ورأت ملامحه الوسيمة وقد فاضت بتعابير لم تعهدها من قبل، ثم قال لها بلطف:

– ليس دائما، لكني فضلت التأكد من الأمر فخابرت فندق «ستاغ» وحجزت لك غرفة فيه حالما أيقنت أنك سوف ترافقينني، لم أشأ أن تغيري رأيك في اللحظة الأخيرة.

– شكرًا لك على اهتمامك بي. لم تكن متأكدة من تحمسها لمحاولة «بيل» تولّي كل شؤونها بنفسه، لكنها كانت عاجزة في الوقت الحاضر

عن القيام بأي عمل حيال هذا الأمر وسمعته يقول لها:

– أهلاً وسهلاً بك. لم ترق لها اللهجة التي استعملها فقالت:

– لا، لن أنزل ضيفة عليك لكني شاكرة لك حجزك غرفة لي.

– أرجو أن تعتبري نفسك ضيفتي يا «سامنتا»، فأنا الذي دعوتك.

– لكني قادرة على دفع ما يجب عليّ. وأفضل ذلك يا «بيل»، إن كنت لا تمانع. قطّب حاجبيه للحظة ثم رفع كتفيه مذعنًا، وقال:

– لك ما شئت، فالمهم لي هو رفقتك. كان الفندق صغيرًا وقديمًا وقد أضنى الجوع «سامنتا» بعد هذه الرحلة الطويلة فالتهمت وجبة الطعام المقدمة إليها بشهية، ثم خرجا معًا للتمتع بغياب الشمس فوق البحيرة. وراحت «سامنتا» تتأمل القوارب الصغيرة المتأرجحة على صفحة مياه البحيرة الهادئة، وعلى متنها بعض السيّاح وقد جلسوا يتمتعون بجمال المناظر الطبيعية من وسطها، ورغبت في أن تفعل مثلهم. سمعت «بيل» يقول وكأنه قرأ أفكارها:

– ما رأيك في أن نلحق بهم؟ ابتسمت «سامنتا» وأومأت إيجابًا قائلة:

– عظيم –تبدو لي فكرة رائعة. جلسا على مقعدين بين عدّة رجال ونساء آخرين. بدوا كأنهم يبحثون عن جوّ رومانسي يعيش فيه كل واحد منهم أحلامه برفقة حبيبه. وابتسم لها «بيل» حين لاحظت الأزواج، ومدّ ذراعه بتردد إلى حافة القارب من ورائها. لم تعترض على حركته لكن قلبها راح يخفق بسرعة جنونية حين راحت أنامله تداعب ذراعها بلطف بعد أن أبحر الزورق إلى عرض البحيرة التفتت نحوه ونظرت إليه مرتبكة فقال لها:

– المنظر رائع. أليس كذلك؟

– أجل رائع. عادت «سامنتا» إلى تأمل الطبيعة من حولها، وغرقت في سحر الجبال المحيطة بالبحيرة والمكسوة بالغابات الظليلة، فيما انعكست أشعة الشمس الغاربة بالتدريج على صفحة الماء الساكنة، وكأنها من الذهب الصافي وارتاح جسم «سامنتا» لا شعوريا على ذراع «بيل» لكنها شعرت فجأة بأنامله تداعب أذنها اليمنى فالتفتت نحوه وصاحت:

– «بيل». صدمتها فجائية حركته خاصة أنها كانت مسترسلة في التفكير في «بارني» تتساءل، هل توقف عن ملاحقتها وعن حاله ومكانه؟ وإذا وجه «بيل» الوسيم وابتسامته تنتشلها من أحلام اليقظة وتعيدها إلى الواقع. وسمعته يقول لها بصوت خافت وهو يشير إلى الناس من حولهم:

– يبدو لي أن الجميع يفعلون ما فعلت.

– لكننا مختلفان عنهم.

– أظن أنك على حقّ. بدا خائب الظن وشعرت ببعض الذنب لتأكدها أنها مستمرة في إعطائه الانطباع الخاطئ عن نياتها بمرافقتها له، فابتسمت ورأته يستجيب بسرعة، إذ قال:

– هل أنت نادمة على مجيئك برفقتي؟

– لا، يا «بيل»، كنتُ أحتاج إلى الابتعاد إلى مكان حيث... وكادت أن تكمل جملتها بـ «إلى مكان حيث لا يقدر «بارني» على اللحاق بي» لكنها تذكرت أن «بيل» يجهل تمامًا حقيقة علاقتها بـ «بارني».

– رأيتك غارقة في الأفكار. هل من أمر يقلقك؟

– لا، أبدًا فالعم «نيكولاس» يعلم بمكاني أو بالأحرى إنه يعرف أنني

في طريقي إلى «اسكتلندا» برفقتك.

– وهل مانع في ذلك؟

– كلا، لم يمانع. تفادت النظر إليه وهي تجيب، فقد اعترض العم «نيكولاس» بشدّة على قرارها لكنها أصرّت على أنها لن تقبل الزواج على النحو المقرر، وأنها تحتاج إلى التفكير فيه أولاً ثم تقرر نهائيا إن كانت تريد الزواج بـ «بارني» أم لا؟ وهي تظن أن الجواب سيكون نفيا وأيقنت أن «بارني» سيلقى كل التشجيع على الاستمرار في ملاحقتها من قبل العم «نيكولاس» الذي كانت تعرف قوة إرادته وعناده. سكت «بيل» قليلاً على الرغم من يقينها بأنه لم يقتنع تمامًا بكلامها، ثم ساعدها على الترجل من الزورق وعادا إلى الفندق. جلسا في البهو المريح وراحا يتكلمان عن مواضيع شتى لكنهما تفاديا الخوض في أسباب مجيء «سامنتا» إلى «اسكتلندا». وكانت تفضل عدم التطرّق إلى الموضوع في الوقت الحاضر، رغم شعورها بتململ «بيل» لهذا الأمر. صعد إلى الطابق العلوي في ساعة متأخرة وودعها «بيل» عند باب غرفتها وعانقها بلطف قائلاً:

– طابت ليلتك يا «سامنتا»، وأحلاما سعيدة.

– طابت ليلتك يا «بيل». دخلت غرفتها وأوصدت الباب، واتكأت لبعض الوقت عليه، فيما راح قلبها يخفق بسرعة، ولم يكن مجهود تسلق السلم هو سبب الخفقان الوحيد. شعرت «سامنتا» بأنه يجب ألا تتعلق كثيرًا بـ «بيل» قبل أن تنفصل نهائيا عن «بارني» وعضّت على شفتها بينما راحت تطأطئ رأسها حائرة. تهوّرت في مرافقتها «بيل» إلى «اسكتلندا» وهو لن يستطيع الامتناع عن تفسير علاقتها به على أنها

تتعدى مجرد صداقة عابرة وسوف تجد نفسها في وضع معقد من جديد. وسمعت فجأة قرعًا خافتًا على بابها، فقفزت لذهولها ووقفت مشدوهة لبعض الوقت تحدق إلى الباب قبل أن تقرر فتحه. لم يكن «بيل» هو الطارق بل «بارني» الذي وقف عند الباب يبتسم وكأنه يعتبر زيارته لغرفتها بعد منتصف الليل كأمر طبيعي جدًا. وراح قلبها يخفق بشدّة ولم تكن متأكدة أبدًا إن كان الغضب أو الانفعال وراء توهّج خديها. دفع «بارني» الباب محاولاً دخول الغرفة لكنها تصدّت له قدر المستطاع، بينما برقت عيناها بفورة الأحاسيس التي اجتاحتها في تلك اللحظة. وهمست له بقوة خشية أن يسمعها نزلاء الغرفة المجاورة:

– اذهب عني.

– أردت إعلامك بوجودي هنا. كان لا يزال يبتسم فهزت «سامنتا» رأسها وقالت متوسلة:

– ارحل، واتركني وشأني. وكيف بالله علمت بمكاني؟ على الرغم من غضبها، شعرت بفضول لمعرفة الأسلوب الذي استعمله للعثور عليها بهذه السرعة.

– هذا سهل جدًا. طلبت من «بريغس» أن يحضر سيارتي إلى «برايتون» البارحة ولحقت بكما إلى هنا.

– لا يحق لك ملاحقتنا.

– طبعًا، يحق لي ذلك حين يهرب شخص برفقة خطيبتي. وصمت برهة وكأنه اكتشف أمرًا ما ثم تابع قائلاً:

– وهل أخبرته بي؟.

– لا... لا، طبعًا لم أخبره. وابتسم بسخرية وقال:

- آه فهمت. أنا غرض من السهل تصريفه، أليس كذلك؟

- لم أعد خطيبتك. ابتسم وراح يحدق إلى ثغرها وكأنه مسحور به وقال:

- لم تعودي خطيبتي؟. مد ذراعيه وضمها إلى صدره يعانقها بقوة، لكنها قاومته بشدّة وأفلتت منه وقالت:

- أرجوك أن ترحل عني.

- إلى غرفتي؟ طبعًا...

- كلا أريدك أن ترحل بعيدًا عني. كف عن ملاحقتي يا «بارني»، لايحق لك أن تلاحقني في وقت أحتاج فيه إلى بلورة الأمور في ذهني.

- إن كانت بلورة الأمور في ذهنك تقتضي الانفصال عنّي فإني سألاحقك إلى جميع أنحاء «بريطانيا» إن دعا الأمر يا عزيزتي، لن أدع هذا البطل «الاسكتلندي» يصطادك أمام عيني.

- أنت مخطئ يا «بارني»، فهو يكتفي بمساعدتي على التفكير.

- آه!!.

- اسكت.

- عفوًا. ابتسم للحظه ورمق الممر الساكن ثم قال:

- طابت ليلتك يا حبيبتي، إلى اللقاء في الغد.

- لا يا «بارني». سار في المشى ثم التفت ولوّح لها بيده فشعرت بيأس شديد ينتابها. حين نزلت «سامنتا» في الصباح التالي لتناول الإفطار كان «بيل» قد سبقها إلى القاعة وراح ينظر إليها بفضول، وما إن جلست حتى سألها:

- هل قضيت ليلة مريحة؟

- نعم، شكرًا. صبّ بعض القهوة بينما راح ينظر إليها قائلا:

- ألم تسمعي ضجة في المشى بعد افتراقنا بقليل؟

- ضجة؟

- أصوات. سمعتها وكان مصدرها قرب غرفتك، بدت لي وكأنها جدل بين شخصين لكن لا أستطيع الجزم لأنهما كانا يتهامسان، ألم تسمعي شيئًا؟ ترددت «سامنتا» برهة وشعرت بأن «بيل» لا يزال رجلا غريبًا عنها على الرغم من موافقتها على السفر إلى «اسكتلندا» برفقته والتعرف إلى عائلته. وما ستكون ردة فعله متى أخبرته بـ «بارني»؟

- أظن، أظن أني سمعت شيئًا.

- هم.. هم! ربما كان هذا الرجل وزوجته يتجادلان فهي تسكن في الغرفة المجاورة لك.

- ربما. تمنت في قرارة ذاتها لو تناسيا الموضوع، لكنها شعرت طيلة الإفطار بالذنب حيال «بيل». وكانت تراقب بقلق مدخل القاعة منتظرة دخول «بارني» الذي وصل لحظة انتهائها من الأكل. واستغل «بارني» فرصة استدارة «بيل» ليلوح لها بيده لكنها تجاهلت حركته. غير أن مجيء «بارني» حرّك من جديد شعورها بالذنب نحو «بيل» فتنهدت بعمق وقررت الغوص في صلب الموضوع فقالت:

- «بيل». نظر إليها نظرة متسائلة ثم قال:

- ماذا بك؟.

- لست متأكدة من صواب فكرة مرافقتي لك وخاصة إلى بيتك. تفحصها مطولا ثم قال:

- أنا متأكد الآن أن هناك ما يقلقك.

WWW.REWITY.COM

– لا ، ليس فعلا إنما أظن، آه أظن أني لم أكن صريحة كليًا معك يا «بيل».

– صريحة؟ وما قصدك..؟

– أنا.. وراحت تحدق إلى فنجان القهوة الفارغ أمامها، تحاول جاهدة إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير، ومدّ «بيل» يده وأمسك أصابعها المرتجفة وقال:

– أنت مشغولة البال يا «سامنتا»، أدركت هذا الأمر منذ أن غادرنا «برايتون» البارحة.

– إني آسفة... لم تكن رفقتي مسلية، أليس كذلك؟

– لا بالعكس – لكن هناك شيء يقلقك وأود المساعدة إن أمكن ذلك.

– أنت لطيف جدًا يا «بيل».

– لقد سبق أن قلت لي هذا. رمقت «بارني» قبل أن تتكلم ورأته منهمكًا في تناول فطوره غير مكترث إليها.

– لم أكن صادقة تمامًا معك يا «بيل».

– فهمت.

– أفهم تمامًا إن غضبت مني. وحدق إليها يتفحصها لحظة ثم قال:

– لا أظنك تفرين من زوج مزعج، أليس كذلك؟

– لا، معاذ الله. وابتسم قائلا:

– آه.

– إنه خطيبي في الحقيقة. رمقها متعجبًا وكأنه يحاول معرفة إذا كانت جادة أم لا؟ ثم قال:

– خطيبك؟

– نعم، أو بالأحرى كان خطيبي. وأنا فسخت الخطبة.

– عظيم، وما سبب القلق إذن. فأنت حرة طليقة الآن، وأين المشكلة؟

– لست متأكدة أني أصبحت حرة...

– لكنك قلت لي لتوك إنك فسخت الخطبة.

– صحيح. صمتت برهة تتساءل عن الطريقة التي تمكنها من التفسير له أن «بارني» رفض فسخ الخطبة بينهما. وأدركت أن الأمور سوف تسوء إن قرر «بارني» اللحاق بها إلى منزل «بيل» وهذا ممكن. فأصرّت على كلامها قائلة:

– فسخت أنا الخطبة لكن «بارني» لا يقبل هذا الأمر.

– «بارني»؟ آه إنه الرجل الذي أرسل لك الأزهار. قال «بيل» ذلك وقد تذكر الاسم الذي قرأه على البطاقة في فندق «برايتون».

– نعم، إنه الرجل ذاته.

– لكن، هل أفهم منك أنه كان موجودا هناك في الفندق في «برايتون»؟

– لا، ليس في الفندق نفسه، اقتفى أثري إلى بلدة صغيرة في مقاطعة «ساري» وحين غادرتها لحق بي إلى «برايتون». تركت الفندق الأول لأنه نزل فيه لكن... ورفعت كتفيها مستسلمة.

– لكن عرف مكانك وأرسل لك الأزهار. وأومأت إيجابا ثم قالت:

– لا أعرف لماذا، فهي المرّة الأولى التي يتصرَّف فيها بهذا الشكل.

– آه. فهمت.

– آه يا «بيل»، إني آسفة. ليس من العدل أن آتي معك دون أن أقول لك السبب، لكني آمل أنه متى أدرك أني عازمة على الذهاب إلى «اسكتلندا» فربما توقف عن ملاحقتي.

– هل أفهم منك أنه لا يزال يتتبعك؟ يا للهول! هل تعنين أنه هنا الآن؟،
وأومأت «سامنتا» وقررت ألا تخفي عنه شيئًا من الحقيقة فقالت:
– وصل ليلة أمس لقد تبعنا أو بالأحرى تبعني من «برايتون». وهز رأسه غير مصدق وقال:
– يا إلهي! ينبغي مكافأته على مثابرته.
– إنه رجل عنيد جدًا لا يستسلم أبدًا.أغاظتها نبرة الإعجاب التي لستها عند «بيل» ونظر إليها «بيل» وابتسم قائلا:
– لا أستطيع لومه. فلو كنتِ امرأتي لما تخلّيت عنك بسهولة.
– لكني لست امرأته. لقد سبق أن قلت لك إني لن أعود إليه حتى ولو لحق بي إلى نهاية الكون. وشعرت في هذه اللحظة بأنها واثقة كل الثقة بكلامها. وسطعت عيناها وفاضتا غضبًا محقًا. ثم تابعت:
– لن أوافق على هذا الزواج مهما حاولوا إرغامي على ذلك. ونظر إليها مندهشا للحماس الذي أبدته ثم قال:
– وهل من أحد يفكر في إرغامك على الزواج؟
– آه إنك لا تعرف «بارني».
– ما سمعت عنه حتى الآن يجعلني غير متشوق أبدًا للتعرّف إليه، لكن هل قلت إنه كان هنا ليلة أمس؟
– نعم، لقد رأيته بعد قليل من افتراقنا. وضاقت فتحتا عينيه حين تكلم قائلا:
– آه. فهمت الآن فتلك الأصوات التي سمعتها لم تأت من جوار غرفتك بل من داخلها... صحيح أم لا؟
– ليس فعلا، أتى «بارني» وطرق بابي لكن لم أسمح له بدخول

غرفتي.
– آمل أن تكوني قد فعلت ذلك. يا لجسارته على ملاحقته لك كل هذا الطريق! ألقى نظرة سريعة ومتكبرة إلى المطعم المزدحم حوله وسألها:
– وهل هو في المطعم أيضًا؟
–نعم، وللأسف. واتجهت بنظرها إلى حيث جلس «بارني» وحاول «بيل» متابعتها ثم سألها:
– وهل هو ذاك الرجل الذي يشبه عاشقًا «إسبانيًا». كادت «سامنتا» أن تنفجر ضحكًا للتشبيه الذي استعمله لكنها سيطرت على نفسها وقالت:
– أظن ذلك، فهو داكن الملامح.
– وهو يغازل بالنظرات تلك الفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة له.
– هذا هو حتمًا «بارني». نظر إليها معجبًا وقال:
– لكن إن كان متشوقًا إلى استعادتك، فلماذا يتصرّف على هذا النحو؟
– هذا خارج عن إرادته. لكن اللوم لا يقع عليه بكامله فالنساء يلاحظنه دائمًا وهو يظهر لهن أنه يلاحظهن أيضًا. بدا «بيل» مستاء جدًا وتساءلت «سامنتا» عما إذا كانت قد أعطته انطباعًا خاطئًا عن «بارني» إذ سمعته يقول:
– أرغب في ضربه ضربا مبرحًا.
– أظن أنه اعتاد وجودي بالقرب منه وعلى اعتباري جزءًا من الشركة.
– من الشركة؟
– نعم، فالوصيّ عليّ عمي «نيكولاس»، ووالد «بارني» أسسا شركة

تجارية للتصدير منذ سنوات وهما شريكان وصديقان. وقد أصبح «بارني» الآن شريكًا ثالثًا لهما والجميع يؤلفون عائلة كبيرة سعيدة وهنا تكمن المشكلة فالكل كان يعتبر أنني سوف أتزوج بـ «بارني» حالما أبلغ السن المؤهلة لذلك.

– ولقد بلغت السن الآن.

– لسوء الحظ بلغت الواحدة والعشرين، لكني لست حرّة رغم ذلك.

– لا، مستحيل في عصرنا وأيامنا هذه، ألم يترك لك المجال للتعبير عن إرادتك الحقيقة؟

– أظن أني كنت استطعت ذلك لو فكرت فيه ولو لمرّة لكني لم أفعل. فكان الجميع يقولون إن «سامنثا» و«بارني» سيتزوجان يومًا وأظن أني كنت منجرفة مع التيار.

– إلى أن ترددت وساورك الشك.

– نعم، منذ يومين وفي أثناء تجربتي لفستان الزفاف نظرت إلى نفسي في المرآة وصحت: «لا، إنهم يعبثون بي كقطعة من العجين، ولا أقوم بأي جهد للتفكير في ذاتي وسوف أعيش حياة رتيبة مملة فانتابني الذعر ولذت بالفرار».

– لكن هذا الرجل يلحق بك.

– نعم – وقبل أن يتسنى لي الابتعاد كثيرًا فالمشكلة هي أنه يعرفني معرفة تامة وهو يستبق أفكاري منذ ثماني عشرة سنة، وتعود على تصرفاتي. مد «بيل» يده من جديد يحاول أن يؤاسيها وعصر أصابعها وقال:

– لا يحق لأحد أن يتعوّد عليك. فإذا كنت غير راغبة في الزواج به

فإني سأضمن لك ذلك.

– أنت... توقفت عن متابعة الكلام حين رأته يعبس في وجهها وهددها قائلا:

– إن قلت لي مرّة أخرى أني لطيف فسوف أضطرّ إلى أن أثبت لك العكس.

– إني آسفة. ضحك وهز رأسه ببطء ثم قال:

– بدأت أشعر وكأني «عنترة بن شداد». أحاول إنقاذك من قدر أسوأ من الموت. ونظرت «سامنثا» مجددا إلى «بارني» الذي راح يتأملها بابتسامة طفيفة وسرّية على ثغره وكأنه يقول:

– كنت أجهل أن الأمر سيسوء إلى هذا الحدّ.

– 4 –

راح «بيل» ينظر إلى «سامنثا» كما اعتاد «بارني» أن يفعل لكن عينا «بيل» كانتا أكثر تسامحا وتراءى لـ «سامنثا» أنها لمست فيهما محاولة جادة لتفهم دوافعها في هذه اللحظة إذ كانت تقول له:

– لا لأنني أرفض مرافقتك إلى بيتك لكن... أظن أنه لا يحق لي أن أشركك في مشاكلي الخاصة. كان «بيل» يقود السيارة على طريق ريفيّ مقفر، مما أتاح له فرصة الالتفات نحو «سامنثا» بين الحين والآخر في أثناء الكلام وقال يذكّرها:

– لا تنسي أني مشترك فيها كوني أساعدك على الهرب.

– وأنا شاكرة لك يا «بيل»، كانت صورة «بارني» لاحقًا بهما في سيارته

السريعة تمنعها من التمتع بالطبيعة الخلابة من حولها وسمعت «بيل» يقول لها:

- لا ضرورة لشكري فأنا مسرور جدًا بدور الفارس الذي أقوم به ما دام «بارني» لم يلحق بنا. ورمق المرآة ثم أضاف قائلاً:

- خُيل إليّ رؤية سيارة وراءنا على مسافة قريبة.

- إنه حتمًا «بارني». قطب حاجبيه ثم قال:

- لقد سُوِّيَ الأمر إذن. إن كان «بارني» قد اقترب منك إلى هذا الحدّ فإني لن أتركك بمفردك في النزل. عليك مرافقتي إلى البيت.

- لا يا «بيل»، أرجوك لا. أفضّل ألا آتي إلى بيتك فأنت لا تعرف «بارني». لا أريد أن يأتي ويقوم بعمل غير لائق في بيتك وفي حضور عائلتك.

- أتظنين أنه قد يُقْدم على عمل كهذا؟ وهزت رأسها ثم اعترفت قائلة:

- لست أدري لكن أفضل عدم المجازفة يا «بيل» أرجوك.

- أنا أفضّل أن تأتي إلى البيت حيث يمكنني مراقبتك عن كثب.

- كلا يا «بيل»، إنك تغمرني بلطفك، لكني لن أزجّ عائلتك في مشاكلي. أنا المسؤولة عن رعونة تصرفات «بارني» الحالية وأعرف كيف أواجهها بمفردي. تمنت لو كان ما قالته صحيحًا، لكنها شعرت بأنه لا حق لها في إشراك «بيل» أو عائلته في خلافاتها مع «بارني» فابتسمت لـ «بيل» ووضعت يدها على ذراعه ثم قالت بصوت ناعم:

- سأكون على ما يرام في الفندق المحلي وبإمكاني اللجوء إليك عند الضرورة.

- أرجو أن تلجئي إليّ فقد غدوتِ شخصًا مهمًا جدًا في حياتي يا «سامنتا». ابتسمت مرتبكة بعض الشيء، فهي تدرك أن «بيل» يتوقع شيئًا واحدًا منها، مما يعني احتمال انتقالها من ورطة إلى ورطة، وهذا ما لم تكن مستعدة له إذ يكفيها ما تعانيه مع «بارني».

- أنت فارس نبيل جدًا يا «بيل»، وأقدّر لك هذا كثيرًا. رمقها ثم ابتسم بمكر وقال:

- أرجو ألا تحسبي أن هوايتي القيام بهذا الدور. لا أدري ما الذي انتابني لكني أدركت في اللحظة التي رأيتك فيها في فندق «برايتون» أنك امرأة فريدة من نوعك.

- «بيل». وقاطعها بسرعة قائلا:

- حسنا. حسنا. يكفيك ما تعانين من مطاردة «بارني»لك فلن أستعجلك أكثر من ذلك لكني لا أريدك أن تفكري في أني أساعدك الآن لدوافع إنسانية فقط. تنهدت «سامنتا» وقالت:

- سأتذكر كلامك. كان نزل قرية «بارشيل» الصغير جميلا جدًا أعجبت به «سامنتا» كما أعجبت بالقرية بكاملها. وقفت إلى نافذة غرفتها تتأمل البيوت المتناثرة على الجبال الشاهقة، ومن بينها منزل كبير من الحجر الرمادي وسط أشجار خضراء ظليلة، وهو المنزل الذي أشار إليه «بيل» في أثناء دخولها القرية قائلا:

- لن أكون بعيدًا عنك إن احتجت إليّ. وسوف أعطيك رقم هاتفي. تساءلت «سامنتا» عن عدد النزلاء الذين يتسع لهم النزل وتمنت لو امتلأت الغرف قبل وصول «بارني». سمعت دويّ محرك سيارة تتوقف أمام الفندق، فألقت نظرة إليها وأكدت لها تشريف الأستاذ «بارني» ولم

تمرّ دقائق قليلة حتى سمعت وقع خطى ثقيلة تصعد الدرج الخشبي وتمر أمام غرفتها فتنهدت. اغتسلت وبدّلت ملابسها مستسلمة لقدرها، وأدركت أن «بارني» مصمم على اللحاق بها أينما ذهبت، وهي عاجزة تمامًا عن منعه وما كادت تنتهي من تصفيف شعرها حتى سمعت قرعًا طفيفًا على الباب، فوقفت لا تحرّك ساكنًا بل راحت تحدّق إلى صورتها في المرآة ثم استدارت ونظرت إلى الباب حائرة:

- «سامنتا». ارتاحت لكونه يتكلم بصوت خافت، لكنه عاود قرع الباب بقوة أكبر من قبل فسارعت إلى فتحه قبل أن ينتبه الآخرون. رآته واقفًا أمامها بقامته الطويلة وبشرته الداكنة وقد أنارت ابتسامته ظلمة الممرّ وبادرها بقوله:

- مرحبًا يا حبيبتي، شعرت برغبة عارمة في الضحك لكنها تماسكت، واتشح وجهها بتعبير من القساوة وقالت:

- ارحل من هنا، ارحل من هنا يا «بارني» وإلا ناديت... عرضت ابتسامته ووضع قدمه على العتبة ثم قال ضاحكا:

- «بيل سميث»؟

- سأنادي صاحب النزل وأقول له أنك دخلت غرفتي عنوة واعتديت عليّ. هز رأسه معاتبًا وضحك ثم قال:

- هذه لعبة قديمة يا حبيبتي، وهو لن يصدقك أبدًا.

- طبعًا سيصدقني. لكنه استمرّ يهز رأسه وقال:

- إنه على علم بكل شيء فلقد أخبرته.

- وبمَ أخبرته؟ تراجعت مدهوشة حتى أنها لم تفكر في الاحتجاج حين دخل غرفتها وأغلق الباب وقالت:

- ماذا قلت له يا «بارني»؟ ابتسم مجددًا وراح ينظر إليها بتهكّم مراقبا ردة فعلها:

- قلت له إن زوجتي فرّت مع رجل وأنا أحاول إقناعها بالعودة. واتسعت عينا «سامنتا» غير مصدقة وقالت:

- زوجتك؟ زوجتك؟ وأومأ إيجابا دون أن يتوقف عن الابتسامة.

- أنت... يا لك من كاذب!

- كلامي قريب إلى الحقيقة. فبعد أيام معدودة ستصبحين زوجتي!

- لست زوجتك ولن أصبح أبدًا.

- أنا متأكد من العكس يا حبيبتي، بعد.. آه في أي يوم نحن؟

- لا يهمني في أي يوم نحن – لن أتزوجك يا «بارني»، لن أتزوجك. وقال لها بصوت ناعم وهو يتقدم خطوة نحوها:

- لقد قطعت عهدًا بذلك. وقبضت على يديها حين رآته يتقدم وقد لمعت عيناه وفاضتا عزمًا، زاد من قلقها وتمنت لو كان «بيل» بجانبها يساعدها.

- لم أقطع أيَ عهد بل... بل...

- إن قلتِ إنك أرغمت على ذلك فسوف أتصرّف معك بعنف كما نصحني صديقنا صاحب الفندق.

- ماذا... ماذا قال؟

- نصحني بالتصرّف بقساوة. يبدو أن ضرب الزوجات الفارّات من ضمن التقاليد المحلية ومن الأفضل لك أن تتذكري هذا الشيء حين تقررين استبدالي بـ «بيل سميث».

- لا أصدق ذلك.

WWW.REWITY.COM

– لا تصدقين ماذا؟ إنهم يضربون زوجاتهم؟... آه لا أدري يا حبيبتي، فالاسكتلنديون رجال أشداء.

– لا أصدق شيئًا مما تقوله.

– كما أني لا أصدق أنك أرغمت على الزواج بي. لقد وافقت بملء إرادتك وأكره أن أترك في الكنيسة بمفردي في اللحظة الأخيرة.

– آه فهمت. لقد جرح كبرياؤك. أنت لا تشعر بأي شيء نحوي، لكنك لا تحب أن تتخلى عنك امرأة وهذا هو سبب ملاحقتك لي عبر البلاد، كان عليّ أن أدرك هذا الشيء من قبل. سألها بصوت هادئ:

– وهل انتهيت من التجوّل؟

– انتهيت؟! بإمكانك الآن العودة بمفردك إلى المنزل.

– وأتركك مع البطل الاسكتلندي هذا. كلا يا حبيبتي. لن أرحل إلا وأنت معي.

– عليك الانتظار طويلا إذن. وتوقف عن مناداتي حبيبتي.

– لماذا؟ لا تنسى أنه يفترض بي أن أغازلك، وأن أحاصر قلعة قلبك القاسي وتعلمين أني لا أستسلم بسهولة.

– آه. «بارني» أرجوك. لا. لا أريدك قربي. بدا وجهه الداكن جديًا كل الجد، ودنا منها إلى مسافة قريبة جدًا مما جعلها تضطرب. كان تسارُع ضربات قلبها شيئًا جديدًا لم تعرفه من قبل وقد أربكها حدوثه مع «بارني» من قبل بأي من العوارض التي تمرّ بها الفتاة العاشقة عادة. هزت رأسها فمد يديه نحوها ولم تتمكن من تفاديها وشعرت بذراعيه تلتفان حولها وتضمانها إلى صدره:

– لا يا «بارني» لا... لم يأبه لصيحة التوسل هذه بل عانقها بعض

الوقت ثم أرخى قبضته، ففتحت عينيها لترى وجهه وقد فاض منه تعبير لا تعرفه. كانت قد رأته جديًا مرات عديدة وغاضبا أحيانا لكن هذا التعبير كان جديدًا عليها وجعلها ترتعش.

– لن يأخذك مني، تبًا لي إن سمحت له أن يأخذك مني.

– «بارني»!

– حضري أمتعتك. إنني عائد بك إلى حيث تنتمين.

– كلا! ومضت عيناه سخطًا كما لم ترهما من قبل وارتعشت خوفًا حين نظرت إليه، ثم تنهد بعمق وهز رأسه ببطء وقال:

– حسنًا... لك ماشئت!

– تعني أنك ستعود إلى المنزل وتتوقف عن ملاحقتي. فوجئت بنفسها تشعر بمرارة لاستسلامه في هذه اللحظة وبهذه السهولة. لكنه هز رأسه وافترّ ثغره عن ابتسامة عريضة حين قال:

– لا يا حبيبتي. لن أعود إلى المنزل. إذا كنت مصرّة على متابعة الهرب فسألحق بك. إن كنت تودين تصعيب الأمور فلك ما شئت.

– لن يدعك «بيل»... لكنه استمر في هز رأسه وبدا واثقًا بنفسه إلى حدّ كبير وقال:

– «بيل سميث» لديه شركة يديرها. وهو عاجز عن ملازمتك طيلة الوقت.

– هذا استبداد! شعرت بالدموع تكاد تنهمر من عينيها، وانزعجت لاحتمال اكتشافه حالتها النفسية، فهو سيعتبر الدموع علامة ضعف، وهي لا تريد الظهور بمظهر الضعف أمامه بعد أن قطعت شوطًا طويلاً على طريق التحرر.

– لا أبدًا.

– وأنت كيف تترك عملك في الشركة؟ فباستطاعة «بيل» أن يتركه أيضًا. وحدق إليها لثوانٍ عدّة ثم قال بصوت هادئ:

– لأسباب عدّة: أولها أني حظيت بموافقة شريكي الكاملة، ثانيها أني أشك في أن يهمل «بيل سميث» عمله من أجل قضية خاسرة. وصاحت به:

– لست قضية خاسرة. ولن أقبل التصرّف وكأني ملكك ولن أعود معك أبدًا. إني باقية هنا.

– إلى الأبد؟ بدا كأنه عاد إلى مزاجه الساخر كعادته، وباتت تدرك أنها لن تستطيع كبت دموعها مدّة طويلة، لكنها قالت:

– ما دمت راغبة في ذلك. حتى تعود أنت إلى البيت. رأته وقد شرع في الضحك بصوت ناعم وهو يهز رأسه ثم قال:

– لن أعود إلا برفقتك، أذهب متى تذهبين وليس قبل. حين أتى «بيل» في الصباح التالي لزيارتها بادرته قائلة بصوت يائس:

– إنه مصمم على ملاحقتي أينما ذهبت. شعرت ببعض الاستياء لعدم قدومه ليلة البارحة لكنها كانت تدرك أنه اضطرّ إلى مجالسة عائلته بعد غياب طويل، وشرح أسباب عدم مرافقتها له إلى البيت كما كان مقررًا. وكررت بإصرار قائلة:

– إنه مصمم يا «بيل». فهو عنيد إني أعرفه جيدًا.

– أصدق ذلك. قال بصوت هادئ لكنها لم تنتبه لمعنى كلامه المبيّت لكثرة قلقها ثم أضاف:

– هل تعتقدين فعلا أنه سيبقى هنا؟ وأومأت «سامنتا» إيجابا:

– نعم سيبقى فهو ينفذ دائمًا ما يعلن عنه. آه «بيل» ما عساني أن أفعل؟ لاحظت «سامنتا» في هذه المرّة الاضطراب على وجه «بيل» وتساءلت عن أسباب التحوّل الذي طرأ عليه ثم تكلّم بعد صمت طويل:

– «سامنتا»... كان واضحًا أنه يجد صعوبة في التعبير عما يخالجه، وارتعشت خوفًا حين التمست ما يدور في ذهنه:

– كنت أتكلم لتوّي مع السيد «ماك في» وفوجئت بفتور استقباله لي... خفض عينيه وراح يحدق إلى يديه وأيقنت «سامنتا» ما سيقوله.

– «سامنتا»... «بارني» هذا يدّعي أنه زوجك! ولم تتمكن من إخفاء المرارة التي شعرت بها حين قالت:

– وأنت صدقته؟ أدركت أن «بيل» مستاء حتمًا من اتهام الناس بأنه سارق زوجات الآخرين، لكنه كان بإمكانه أن يصدقها هي عوضًا عنهم، وسمعته يحتج قائلا:

– لم أقل إني صدقته... لكن كان واضحا لـ «سامنتا» أنه صدقه.

– لكن تصديق السيد «ماك في» للخبر يضعني في موقف حرج يا«سامنتا».

– أظن أنك على حق.

– وهو لن يتأخر عن نشر الخبر، ولن يطول الأمر حتى يعلم أهل القرية برمتها أني جئت مع زوجة فارّة.

– لكني لست زوجة فارة وأنت تعلم ذلك يا «بيل».

– أنا أعرف ذلك لكن من غيري يصدق؟ إني أعرف أولئك القوم منذ زمن بعيد، وأنا متأكد أنهم سيتخذون موقفًا صارمًا حيال هذا الأمر.

– ماذا تعني بالضبط يا «بيل»؟ هل تحاول إفهامي أني بت مصدر

إزعاج لك؟

– لا ألومك يا «سامنتا»، لكن ملاحقته لك من مكان إلى آخر تشكل دليلا إضافيًا على صحة إدعاءاته ألا توافقين على ذلك؟

– لا أوافق على شيء». شعرت بدموع الغضب والقهر تحرق عينيها، فجلست مكتوفة اليدين على وشك الاستسلام لابتزاز «بارني» والعودة إلى المنزل برفقته، لكنها سمعته يقول لها:

– هل أنت باقية هنا؟

– لست أدري. هزت رأسها ببطء ثم رفعت عينيها تتفحصه بصمت برهة فيما خفض عينيه ثم ضحكت وقالت:

– أظن أن لا جدوى من بقائي بعد ما حصل. نهضت عن كرسيها ونظرت إليه مرّة أخيرة وقالت:

– أراهن على أنك مسرور الآن لأني لم أرافقك إلى بيتك. أليس كذلك؟

– «سامنتا»...

– آه، لا تشغل بالك، فهناك حتمًا أماكن أخرى أستطيع الذهاب إليها، وهناك حتمًا فرسان آخرون متى احتجت إليهم، شكرًا لمساعدتي يا «بيل». نهض بسرعة عن كرسيه، ورأت وجهه يلتوي تأسفًا فيما حاول إمساك يدها ثم قال لها:

– أرجوك يا «سامنتا». لا ترحلي وفي ذهنك هذه الصورة السيئة عني.

– نظرت إليه فرأت أمامها رجلا لطيفًا وعاديًا، لربما هذا هو السبب الذي حال دون تمكنه من مجابهة استياء الناس الذين عرفهم طيلة حياته، وذلك بغض النظر عما يدعي، إنه يكنّ لها من حب ومودة. فمجابهتهم تتطلب حقًا رجلا مثل «بارني» وهو رجل أبعد ما يكون

عن اللطافة والاعتيادية. كانت القاعة خالية من الناس حين نزلت في الصباح التالي لتناول الإفطار ورماها صاحب الفندق بنظرة عدائية حين بادرته قائلة:

– هلا أعلمتني بحساب إقامتي؟ ولم تفتها النظرة التي ألقاها إلى الأعلى وكأنه فكّر في «بارني» وسألها:

– أنت راحلة إذن؟

– نعم، شرط أن أستطيع الحصول على سيارة أو أي وسيلة أخرى تنقلني إلى أقرب محطة، هل هذا ممكن؟

– هذا ممكن إن وجدت «روبلي براون» وان لم يحالفك الحظ فعليك السير إلى المحطة.

– وهل هي بعيدة؟ كانت مصممة على الرحيل رغم محاولاته المفضوحة لثنيها عن قرارها.

– حوالي خمسة كيلومترات.

– خمسة كيلومترات؟! راحت تحدق إليه غير مصدقة وخيّل إليها رؤية ابتسامة تعلو ثغره حين عاد إلى أعماله، ثم سألها بعد لحظة:

– ألا تنوين تناول الإفطار قبل رحيلك؟.

– لا أستطيع قطع مسافة خمسة كيلومترات على الأقدام حاملة حقيبتي.

– إنها فعلا رحلة شاقة يا سيدتي، لم تأبه للمعاني المبيتة في ملاحظته الأخيرة بل جلست حزينة وقالت:

– أظن أن لا خيار لي. التفت نحوها ظافرًا وكأنه خطط بدقة حواره معها وابتسم قائلا:

www.rewity.com

– بإمكانك أن تطلبي من زوجك أن يوصلك إلى المحطة.

– لكنه ليس زوجي، ولا يحق لك أن تدعي أنه زوجي. التفت نحوها، وراح يحدّق إليها بعينيه النافرتين وسط وجهه المحتقن وقال:

– بدا لي أنه رجل شريف وهو يدّعي أنك زوجته وأميل إلى تصديقه.

– أما أنا فلست زوجته. وإني راحلة الآن سواء تناولت فطوري أم لم أتناوله وأرفض البقاء ليلة أخرى في المكان ذاته معه – أرجوك أن تحضر لي حسابي. هزّ كتفيه العريضتين ثم دخل إلى الغرف الداخلية، وعاد بعد دقائق وبيده الفاتورة فسددت قيمتها بسرعة، وتسلمت وصلا منه من غير أن يتكلم أي منهما.

– سأحضر لك حقيبتك. وصعد السلم قبل أن يتيح لها الإجابة.

– شكرًا لك. نظرت بقلق إلى حقيبتها الثقيلة وأدركت أن حمل حقيبتها والسير بها على الطرق المقفرة والمتعرجة عمل شاق جدًا إذا ما قورن برفاهية سيارة «بيل» ورفقته.

– هل لديك فكرة عن أسلوب ذهابك إلى المحطة؟ تجاهلت سؤاله رغم أنها لاحظت الابتسامة الظافرة التي رافقته وخرجت من الفندق. كانت الطريق سيئة التعبيد، لكنها استطاعت أن تسير على حافتها المكسوة بالعشب. اشتدت حرارة الشمس بسرعة فاقت توقعاتها، وشعرت بأن وزن الحقيبة يزداد مع كل خطوة تخطوها. كانت قد توقفت في المقهى وخابرت العم «نيكولاس» الذي لم يشجعها قط فاكتفت بإخباره بأنها غادرت الفندق واتجهت نحو مكان آخر تجهله. وضعت حقيبتها على الأرض ووقفت تدلك ظهرها من التعب وخلعت حذاءها لإراحة قدميها. خُيل إليها للحظة أنها تسمع صوت محرّك سيارة فالتفتت لكنها لم تر

شيئًا. وقفت عند حافة الطريق وسط الحقول الشاسعة، وراحت الشمس تنعكس على شعرها الذهبي الأحمر الذي شعّ بألف لون، وانهمرت فجأة دموع الإرهاق والقهر على خديها وتأوهت قائلة:

– آه لا، هذا «بارني». أبصرت بسهولة سيارة «بارني» الحمراء التي كانت تسرع نحوها فأغمضت عينيها وكأنها تحاول طرد حلم مزعج، ولما فتحتهما كانت السيارة قد اقتربت منها أكثر، فجلست على حقيبتها مستسلمة لقدرها. توقفت السيارة بعد قليل، وأدركت حين رأت ابتسامته الساخرة أنه كان يتوقع أن يجدها في هذا الوضع المرهق، فتح باب السيارة وترجل منها ثم سار نحوها، ووقف أمامها يتأملها لبعض الوقت واضعا يديه على خاصرتيه ثم سألها:

– هل اكتفيت؟ انفجرت «سامنثا» بالبكاء. أسرع نحوها وضمها بين ذراعيه، فدفنت وجهها المغبر ودموعها المنهمرة في قميصه الأبيض النظيف. وسمعته يهمس في أذنها وبصوت متسامح وإن لم يخلُ من بعض التململ:

– لماذا تتصرفين بهذا العناد؟ أنت تعلمين أنه لم يكن ضروريا أن تفعلي هذا.

– أردت الابتعاد عنك. رفعت وجهها ثم فركت عينيها وتمنت لو كان لديها منديل تمسح به وجهها.

– تفضلي. قدم إليها منديلاً أبيض فقبلته، وتمتمت عبارة شكر، بينما راحت تمسح وجهه بغير أن تدرك أنها لا تزال واقفة بين ذراعيه.

– هل تشعرين بتحسن؟ حين رأته يبتسم لها انتبهت إلى أنه ما يزال يضمها فأفلتت منه وقالت:

– نعم، شكرًا لك.

– وهل أنت مستعدة للعودة إلى رشدك والركوب معي في السيارة؟

– كلا. وضع يديه على خاصرتيه وراح ينظر إليها من جديد وكأنها طفل عنيد يرفض التعلم ثم قال:

– كفاك عنادًا، لا يمكنك متابعة السير بهذه الحقيبة اللعينة وأنت تجهلين وجهة سفرك في أي حال.

– أقرر ذلك متى بلغت المحطة.

– إذا بلغت المحطة؟ لن تبلغيها أبدًا على هذا المنوال.

– سأتدبر أمري. ألقت نظرة إلى الطريق المتعرّج أمامها وغاص قلبها، وأدركت أنها ربما فشلت في الوصول إلى المحطة بمفردها ومن الأفضل قبول عرضه في الوقت الحاضر وقال ملحًا:

– لن تنجحي، وأنت تعرفين ذلك! نظرت إليه ورأت أنه غير مستعد لقبول أية معارضة منها وشرعت تقول:

– باستطاعتي... لكنه انحنى فجأة وحملها بين ذراعيه، ونجح في الوقت ذاته في خلع حذائها ورماها على مقعد السيارة قائلا:

– لن أقف النهار بكامله أتجادل معك، بل ستسمعين كلمتي ولو لمرّة واحدة. ثم ذهب وأحضر حقيبتها، وشعرت بارتياح عظيم لجلوسها أخيرًا على مقعد مريح، وامتنعت عن الاحتجاج في الوقت الحاضر. وضع الحقيبة في مؤخرة السيارة ثم جلس وراء المقود وأدار المحرك، ثم التفت نحوها وقال:

– كل شيء على ما يرام؟ أومأت إيجابا. قطعا مسافة قصيرة صامتين إلى أن بانت لهما مباني قرية صغيرة، وراحت «سامنثا» تبحث عن محطة

القطارات. وتجاوزا فجأة مبنى حجريًا صغيرًا فالتفتت إليه وصاحت:

– «بارني». لم يكلف نفسه عناء النظر إليها بل ابتسم وقال:

– إنها لقرية جميلة، أليس كذلك؟

– مررنا لتونا أمام المحطة يا «بارني».

– أعرف ذلك، لكن لا حاجة بك إلى المحطة بعد الآن فأنا معك.

– لا أريدك معي. نظر إليها وقطّب حاجبيه معاتبا ثم قال:

– لا تقولي هذا يا عزيزتي، فإني أوفّر عليك ثمن العديد من تذاكر السفر.

– لا أريد العودة إلى المنزل يا «بارني».

– سيتألم العم «نيكولاس» لسماعه ما قلت.

– أدركت الآن أن العم «نيكولاس» شرير مثلك فهو يحالفك وهذا ظلم.

– طبعًا هو يحالفني رغم أنك تتصورين الأمر وكأننا عصابة.

– يريدني أن أتزوجك للغرض ذاته الذي تريده أنت والعم «روبرت». فأنتم تؤلفون عصابة ضدي.

– آه. تتكلمين وكأنك طفلة يتيمة مرمية في الشارع، كفاك هذا فأنت تعلمين أن أبي و «نيكولاس» يحبانك بقدر ما أحبك أنا.

– هنا تكمن المشكلة ويا للأسف. يجدر بك أنت على الأقل أن تشعر نحوي بطريقة مختلفة عنهما.

– وكيف لي ذلك ما دمت تصدينني كل الوقت. نظرت إليه لبعض الوقت حائرة، وتساءلت عما إذا كانت تسيء الحكم عليه لكنها هزت رأسها بعزم وقالت:

– أنا متأكدة أنك مهتم بي، لأنه ربما تخليت عن الزواج بك وأنت تكره

هذه الفكرة، وقد تفعل أي شيء لأتخلى عن قراري. وقد ترغمني حتى على الذهاب معك إلى الفراش... رأت يديه تنكمشان بقوة على المقود فتبيّض المفاصل وأيقنت أنها تمادت في استفزازه فقالت:

– ينبغي عليّ أن... كان يحدق بصمت إلى الطريق أمامه وقد انكمشت أسارير وجهه بتوتر، وأدركت أنه يجاهد للتغلب على فورة أعصابه، وبدأ بعد قليل يعود تدرجًا إلى الهدوء ثم هز رأسه وكأنه يحاول التخلص من فكرة ما.

– أنت صعبة الإقناع. لكني سأنجح في إقناعك حتى ولو قضيت العمر كله... صمتت لحظات ثم ألقت نظرة خاطفة حولها وشعرت بفكرة جديدة بدأت تتكوّن في ذهنها وقالت أخيرًا:

– إني أحتاج إلى إجازة، إلى تغيير الأجواء.

– أنت في إجازة الآن.

– نعم. ثم أضافت بعد أن ألقت نظرة متسائلة عليه:

– تريد إقناعي بصدق شعورك نحوي، فهل أنت مستعد لمرافقتي حول البلاد؟ إلى كل الأماكن التي أقرر زيارتها؟ سكت برهة ثم قال:

– أفهم منك أنك عازمة على الاستمرار في حياة التشرّد هذه. ووافقت قائلة:

– أجل. فأنا سعيدة جدًا بهذه الرحلة باستثناء حالة أو حالتين.

– طبعا سعيدة للإزعاج الذي تسببينه لي وللطريقة التي جررت بها صديقك الفارس «بيل» من أنفه.

– لم أجرّه من أنفه.

– وكيف تمكنت من التخلص منه؟ ترددت عن إخباره بحقيقة ما حصل

لإدراكها أنه سوف يُسرّ بها، لكنها اعترفت قائلة:

– صدّق هذه القصة السخيفة التي أخبرتها للسيد «ماك في». صدق أنني زوجتك. انفجر ضاحكا كما توقعت وقال لها:

– وتخلى عنك وكأنك أفعى سامة وقعت بين يديه، آه يا عزيزتي المسكينة لقد خيّب فارسك النبيل أملك أليس كذلك؟

– وأنت السبب. لو لم تنشر هذا الخبر الكاذب والشنيع لكانت الأمور قد سارت على أحسن وجه.

– الأمور تسير على أحسن وجه بالنسبة إليّ. نجحت في تحقيق أهدافي وفي حملك على مرافقتي حتى ولو اضطررت إلى أن أعدك بالتجوال في أقطار البلاد. ونظرت إليه «سامنتا» مبتسمة ابتسامة لو رآها لارتاب منها ثم قالت:

– من الأفضل لك أن تتريث قبل التصريح برغبتك في مرافقتي حول البلاد، فإني أشعر برغبة في بسط جناحيّ والتحليق بمفردي وقد لاتحسب ذلك. رمقها برهة ثم ابتسم وقال:

– هذا أمر مستبعد، مستبعد جدًا...

– 5 –

قررت «سامنتا» انتهاز فرصة وجود «بارني» في مقهى الفندق للخروج بمفردها واكتشاف الأماكن المحيطة بالفندق. أحبت قرية «بريميرين» منذ لحظة وصولهما إليها، ورضخ «بارني» إلى قرارها بالبقاء فيها ولو لليلة واحدة رغم أنه كان يفضل الابتعاد عن قرية «بارشيل» لمسافة أكبر.

www.rewity.com

دخلت خلسة إلى المقهى ورأت «بارني» محاطًا بمجموعة من الرجال يتحادثون بحماس، فخرجت من غير أن يلاحظها وتوجهت بعيدًا عن القرية. راحت تسير على درب من الحجارة المغطاة بالأعشاب، يصل حدائق الفندق ببحيرة صغيرة، وما لبثت «سامنتا» أن وجدت نفسها على حافة الماء، فشرعت تتأمل البحيرة الممتدة على طول الوادي الأخضر الخلاّب. وتراءى لها بيت صغير من الحجر الرمادي وسط غابة من الأشجار وكأنه حلم لا واقع. توجهت «سامنتا» نحوه لا شعوريًا على الرغم من بعد المسافة، اختفى البيت عند منعطف من الطريق ولم تر نفسها إلا وقد دخلت الحَرجَة الصغيرة المحيطة به، والتفتت تتعجب للمسافة الشاسعة التي قطعتها وإذا بها تفاجأ بصوت يرحب بها:

- مرحبا بك، هل تهت؟ استدارت بسرعة وابتسمت لا شعوريًا لمخاطبها قائلة له:

- كلا، كنت أقيّم المسافة التي قطعتها. من الفندق، ثم أضافت بعد أن أومأت إيجابا:

- إنها فعلا مسافة بعيدة. كان مظهره مطابقًا لصورة الفنان التقليدية. شعر أشقر طويل، يتدلى على الكتفين، ولحية شعثاء وبقع دهان تلطخ يديه وثيابه. ولم تكن «سامنتا» قد رأت عينين بزرقة عينيه اللتين كانتا تتفحصانها بجرأة وتقدير صريح. وتجاوبًا مع ما في أعماق ذاتها سارعت إلى كبحه وسألته:

- هل تسكن في البيت؟

- نعم.

- أنت أمريكي؟ تعجبت لجرأتها في الحديث، وهو شيء لم تعهده

مع الغرباء.

- تقريبا أنا «كندي» بالفعل. وأنت أيضًا لست من هنا فإني أعرف فتيات القرية جميعهن. أدركت «سامنتا» قصده من ملاحظته الأخيرة، لكنها لم تزعجها ربما لكونه رجلا جذابًا على الرغم من مظهره وتكهنت أنه لا يلاقي أية صعوبة في الحصول على المرأة التي يريدها. كانت متأكدة أنه لحق بأفكارها إذ رأته يبتسم فهزت رأسها وراحت نبضات قلبها تتسارع حين صافحت يده الملوثة بالدهان التي مدها نحوها قائلا:

- «بيتر روبرتس».

- «سامنتا داوليش». عصر أناملها بين يديه وأبقاها مدّة أطول مما تطلبه المصافحة العادية ثم قال لها:

- والآن بعد أن تعارفنا أرجو أن تعاودي زيارتك.

- لا أدري كم تكون مدّة بقائنا هنا. أدركت أنها مرتبكة جدًّا في حضوره وكأنها تلميذة مدرسة أمام رجل ناضج يربكها إلى أقصى حدٍّ.

- آه فهمت، أنت برفقة شخص.

- هناك «بارني» أيضًا. نظرت إليه وأدركت أنه يجهل ولا يبالي أبدًا بمن قد يكون «بارني» فـ «بيتر روبرتس» مهتم بها الآن دون سواها.

- آه... لست من «اسكتلندا»، أخبريني بالمزيد عن نفسك. لم تستطع كبح الابتسامة التي شقت ثغرها لنبرة سؤاله السلطوية ولم تتردد في الإجابة قائلة له:

- لا أظنك تعرف القرية التي أسكنها. فهي تدعى «ليتل ديبستول» في مقاطعة «ساري».

- أعرف «ساري» لكنني لم أزر «ليتل ديبستول»، أظن أنه ينبغي ليّ أن

www.rewity.com

أقصدها يوما ما لأن الفرص سانحة حتما فيها. وشرع يتأملها في أثناء التكلم ولم يخفِ معنى كلامه المبيّت عن «سامنتا». لكنها قررت أن تتعمد عدم الفهم وقالت:

– إنها قرية جميلة. لكنها هادئة جدًا ولا مجال للتسلية فيها. ولايستطيع المرء الاستغناء عن السيارة هناك.

– أملك سيارة وأجد دائمًا أساليب للتسلية أينما وجدت. هل عشت فيها مدّة طويلة؟

– منذ أن كنت في الثالثة من عمري.

– أنت فتاة قروية إذن. انتبهت إلى تهكم ملاحظته، فانزعجت منه ورمته بنظرة معاتبة وقالت:

– «لندن» على مسافة بضعة كيلومترات فقط من القرية، لست فتاة قروية يا سيد «روبرتس».

– إذن لست فتاة قروية، هل تحبين «اسكتلندا»؟ نظرت «سامنتا» حولها إلى الوادي والتلال المحيطة به وإلى صفحة مياه البحيرة المتلألئة ثم قالت:

– إنها رائعة الجمال. ثم رمقته وقالت:

– أنت فنان، أليس كذلك؟

– أحاول أن أكون، من لا يستطيع الرسم هنا فهو عاجز عن أي إبداع. إنها لمنطقة رائعة. ثم أضاف بعد أن حدّق إليها مطوّلا وابتسم:

– أرجو أن تمكثي بها مدّة كافية لكي تتوطد معرفتي بك. خفضت «سامنتا» عينيها بسرعة وقالت:

– آه. أظن أننا سنبقى هنا ليوم أو يومين على الأقل. أحب هذا

المكان.

– حسنًا، لا أريدك أن ترحلي قبل أن يحصل شيء ما بيننا يا «سامنتا داوليش»، أمسك يدها اليسرى، وشعرت للحظة بأنامله تفحص إصبعها الوسطى ثم رفع يدها إلى شفتيه ولثمها ضاحكًا:

– لا أرى أثرًا لروابط تأسرك. وإن كانت موجودة فهي ليست ظاهرة على الأقل. بدأت «سامنتا» تشعر بموجة من الذعر الغريب والمثير في آن واحد، وشبكت يديها بقوة بعد أن أفلتها، وأدركت أن الأمور تسير بسرعة تفوق قدرتها على الاستيعاب، على الرغم من تمتعها بها فقالت فجأة:

– من الأفضل أن أعود أدراجي، قبل أن يفتقدني «بارني». لم يحاول ثنيها عن عزمها أو الإلحاح عليها كي تبقى مدّة أطول، بل وقف ينظر إليها بعينين برّاقتين إلى أن استدارت وشرعت في السير. وقبل أن تتوارى عن نظره عند منعطف، التفتت من جديد ورأته واقفًا بقامته النحيلة والطويلة وقميصه المفتوح، وشعره الأشقر، يتتبعها بعينيه. فلوحت له بيدها لا شعوريًا لكنه لم يكلف نفسه عناء الرد على التحية. كانت مرهقة حين بلغت الفندق وقد احمرّ خداها، لكنها قررت ألا تبوح لـ «بارني» بلقائها مع «بيتر» خاصة أنه لم يكن قد لاحظ خروجها. فسوف يؤنبها حتمًا لو أخبرته بمقابلتها لغريب. كان النهار رائعًا وتمددت «سامنتا» بكسل، وأغمضت عينيها تقيهما من نور الشمس، واسترسلت تفكر في أحداث اليومين المنصرمين. شعرت بالارتياح للهدوء الذي ساد بينها وبين «بارني» في الفترة الأخيرة، حتى أنها فكرت في أن باستطاعتها قضاء العمر بكامله في هذه القرية الساحرة، لولا

وجود المشاكل التي عليها مواجهتها، كمشاريع العم «نيكولاس» والعم «روبرت» المتعلقة بزواجها بـ «بارني» وموعد العرس وثوب الزفاف...

كان «بارني» متمددا إلى جانبها، فالتفت نحوها وابتسم من وراء نظارته الداكنة وقال:

– لماذا لا تضعين نظارة شمس؟

– لست أحتاج إليها ولن أستطيع رؤية كل تلك الألوان الرائعة إذا وضعت نظارة داكنة.

– لن تستطيعي رؤية أي شيء إذا ما أتلفت عينيك.

– آه، كفاك إبداء النصائح يا «بارني»، تتصرف وكأنك العم «نيكولاس».

– ربما لأني أقوم بدوره الآن، والله يعلم أنك تحتاجين دائما إلى وصي.

– تتصرّف معي وكأنك مسؤول عني منذ الصغر. وتسمح لنفسك بهذا لكونك تكبرني بثماني سنوات.

– يا للباقتك! ما أبعدك عن لباقة السيدات!

– إنك تشكو من عقدة تفوق.

– وهل موجودة هذه العقدة؟ سمعت بعقدة النقص.

– لن تتكوّن لديك عقدة نقص أبدًا.

– لو كان لديّ عقدة نقص لما تحملتني يومًا واحدًا. واستدارت مجددًا لشدّة اضطرابهما وكأنها بدأت تشعر بالخجل نحوه أو بغيرة من الأحاسيس التي بدأ «بارني» يولدها فيها وقالت:

– كنت أنعم بالشمس ولا أفكر في أي شيء وهأنت تعكر مزاجي

باختلاقك جدلا.

– لم أكن البادئ بل أنت.

– أحدنا البادئ. راحت تتأمل صفحة المياه الهادئة، وتذكرت فجأة البيت الرمادي الصغير على ضفة البحيرة وسط الأشجار. لم تفكر في «بيتر روبرتس» طيلة هذين اليومين وإذ يملأ ذهنها في هذه اللحظة بالذات إلى درجة أن باتت لا تستطيع مقاومة الرغبة في زيارته، بمفردها طبعًا، فقالت:

– أرغب في السير بمحاذاة الماء. ونهضت بسرعة ثم أضافت:

– لا أريدك أن ترافقني أبدًا.

– ليس في نيتي أبدًا أن أرافقك فلا أظن أنك معرّضة لأي خطر في أثناء سيرك على ضفاف البحيرة.

– لا أبدًا. لا خطر عليّ. لكن شيئًا ما في نبرتها أنذره بالعكس، فجلس ووضع ذقنه على ركبتيه وحدق إليها يتفحصها لبعض الوقت وقد خلع نظارته ثم قال:

– أظن أنك تخبئين شيئًا في جعبتك.

– وكيف لي ذلك وأنا لا أملك جعبة؟

– كفاك مناورات. من أين لك هذا النشاط المفاجئ؟

– أشعر أحيانًا بالنشاط هكذا.

– لا، أشعر بأنك تخبئين شيئًا، ماذا يجول في ذهنك؟

– لا شيء... لا شيء أبدًا. لكنه لم يقتنع، بل أمسك معصمها بقوة وابتسم ابتسامة ساخرة وقال بصوت قاس:

– إن هربت مني مرّة أخرى حطمت عنقك يا «سامنتا»، أقسم لك.

نظرت إليه باحتقار، ثم أفلتت يدها من قبضته وراحت تدلك معصمها وقالت بثبات:

– أنا ذاهبة في نزهة ولا أظن أنه يلزمني نيل موافقتك على كل خطوة أقوم بها، لم نبلغ هذا الحد بعد.

– «سامنثا». بدا متألمًا من كلامها وغاضبًا وكان بإمكانها أن تعود إليه وتوضح له أنها لم تعنِ ما قالته، لكنها تابعت سيرها متجهة نحو البيت الصغير. عضت على شفتها لشعورها بالإثارة لفكرة زيارتها البيت الصغير ومقابله صاحبه، أحست برغبة جامحة في مواجهة تحدي عيني «بيتر روبرتس» مهما كانت النتائج. وكانت تشعر برغبة غامضة في الإثبات لـ «بارني» أنها لم تصبح مستعدة بعد للاستقرار في دور الزوجة. تساءلت في أثناء سيرها ما إذا كان الواقع الوحيد في زيارتها الحالية هو إثبات شيء ما لـ «بارني»، فكان الوضع بينهما يتطور بسرعة كبيرة وشعرت بأنها كانت دائمًا تستبعد «بارني» عن الأحلام الرومانسية التي تنسجها كل فتاة في مخيلتها. نادرًا ما كانا يتجادلان بهذا الحماس من قبل، وأدركت أن شعورًا جديدًا قد تولد في علاقتهما، بات يدفعها إلى الحياء منه عوضًا عن التوجه إليه في كل شاردة وواردة، كما كانت تفعل من قبل. لقد كتمت عنه خبر لقائها بـ «بيتر روبرتس» وزيارتها له الآن، وهو رجل تعرفت إليه منذ يومين ولم يخف عنها كونه يفكر في شيء واحد حيالها. لم تكن تجرؤ على التفكير في ردة فعل «بارني» لهذا الشيء، لكنها شعرت برغبة خفية في أن يكتشف أمرها، وكأنها تود انتهاز الفرصة لتثبت له أن «بيتر روبرتس» بالنسبة إليها لا يختلف عن... النساء اللواتي يعجبن بـ «بارني» ويستجيب لهن بسرعة. وصلت

أخيرًا إلى البيت الصغير، وقد أتعبتها المسافة الطويلة ورأت الباب مفتوحًا كما في زيارتها الأولى، لكن قلبها راح يخفق بسرعة كبيرة حين رأت رأس «بيتر» الأشقر وقد انحنى فوق لوحة رسم عند إحدى زوايا البيت الخارجية. أدركت أنه لم يفقد أيًا من الجاذبية التي لمستها فيه في زيارتها الأولى، لكنها ترددت خشية أن توقفه عن العمل الذي انكب عليه. بدا لها وكأنه حيوان مفترس مشدود العضلات، وقد جلس على كرسي عالٍ لا يعير اهتمامه إلا للوحته التي كان ينجزها. وكان يلون اللوحة التي تظهر مشاهد طبيعية صيفية الألوان زاهيتها، فيضفي عليها ألوانًا فاقعة وقاسية تزيد من جمالها. لم يتنبه لوصولها فاستدار بسرعة وحدق إليها مدهوشًا حين تكلمت وسرعان ما ابتسم مرحبًا بها قائلاً لها:

– أهلاً بك. كنت آمل أن تأتي لزيارتي من جديد.

– كنت مارة مصادفة من هنا فقررت أن أعرج عليك وأحييك. تفحصتها عيناه الزرقاوان بتأنٍ ثم ابتسم وقال:

– أنا مسرور لقدومك.

– أرجو ألا تكون منهمكًا في أعمالك. رفع كتفيه ثم أشار إلى اللوحة وقال:

– لن يصيبها أي مكروه، ما رأيك فيها؟

– إنها لوحة رائعة. عبرت بصدق عن رأيها وأدرك «بيتر» ذلك فابتسم.

– هل أنت متأكد أني لن ألهيك عن أعمالك. ضحك بصوت ناعم ومرر أصابعه في شعره ثم قال:

– أظن أنك قادرة على إلهاء أي رجل، إن حاولت أو لم تحاولي. فاقت جرأة مديحه هذا جرأة ألوان اللوحة وأدركت «سامنتا» لتوها أنه رجل مقدام لا يعرف التردد، وبدأت الشكوك تساورها حول صواب قرارها بالمجئ لزيارته بمفردها.

– لا أريد مقاطعة صفاء خالتك.

– رؤيتك تزيد من صفائها. تفضلي. ما رأيك في تناول بعض القهوة؟ ترددت حيال قبول دعوته لكنه أصر قائلا:

– تفضلي. تفضلي سأحضر بعض القهوة. لم يكن أمامها خيار آخر سوى قبول دعوته، فدخلت البيت وأشار إلى كرسي خالٍ فجلست بينما قصد المطبخ وشرع في تحضير القهوة وكان بإمكانه متابعة التحدث إليها ورؤيتها لقرب المطبخ من الغرفة حيث جلست فقال لها مبتسما:

– إلى أين قلت إنك متوجهة؟

– ليس لدينا أية وجهة سفر محددة بل نكتفي بالتجول لبعض الوقت.

– وهل أنتما فارّان من العدالة؟ أغضبتها وقاحة سؤاله فحدقت إليه حانقة ثم قالت له:

– لا. طبعا لا. لم يكترث لردة فعلها بل ابتسم وقال:

– إنها مجرد فكرة خطرت لي. إذن فهذه رحلة العمر أليس كذلك؟

– تقريبا. كان من الصعب تفسير الأمور لشخص غريب، وشعرت بارتجاف يديها في حضنها لكنها أضافت:

– شعرت... عفوًا، شعرنا برغبة في مشاهدة بعض أنحاء البلاد ليس أكثر.

– أنت وزوجك... لقد لمست أثر الخاتم في إصبعك المتوسط وهو لايزول إلا بعد زمن طويل. وتفحصت لاشعوريًا إصبعها ولاحظت الأثر البسيط في مكان الخاتم الذي خلعته حين قررت مغادرة المنزل، لم يحاول تبرير تطفله أو الاعتذار فأجابته:

– «بارني» ليس زوجي.

– فهو عشيقك إذن.

– كلا. كانت متأكدة أنه سيفكر في أن «بارني» عشيقها، ولربما أعطى ألف تفسير لزيارتها له، لكنه لم يكن مكترثا لما إذا كان عندها عشيق أو عشرة عشاق وسمعته يقول لها:

– إنه مجرد تكهن...

– إني أعرف «بارني» منذ زمن بعيد وهو بمثابة أخ لي.

– أخ لك؟! ابتسم وعاد إلى الاهتمام بالقهوة، ثم أتى بها واعتذر عن عدم وجود الحليب (اللبن)، ثم جلس على كرسي فوق كومة من الثياب والأحذية وقال وهو يشرب من فنجانه:

– إذن أنت تسافرين بغير وجهة معينة برفقة أخيك هذا. وأومأت «سامنتا» إيجابا وقد أربكها عدم تصديقه لها ثم قالت:

– نوعًا ما.

– يبدو لي أنك من نوع النساء اللواتي أحبهن يا «سامنتا»... عيشي يومك ولا تقلقي بشأن الغد، أليس كذلك؟ وافقت مترددة فضحك من جديد وقال:

– غريب، فنادرًا ما أحظى بالحكم على امرأة لكني صنفتك في عداد النساء التقليديات اللواتي لا يعاشرن إلا الرجل الذي يتزوجن به.

WWW.REWITY.COM

– قد أكون إحداهن.

– وكيف لك أن تكوني إحداهن وأنت تتجولين في أنحاء البلاد برفقة هذا الرجل الذي تدعين أنه أخوك؟

– نعم فهو كذلك، «بارني». آه... إنه مختلف.

– حتمًا هو مختلف.

– سيد «روبرتس»!

– آه، لا داعي للصراخ ولا تضطربي لكلامي أرجوك أن تناديني «بيتر» فلا أحب من يناديني بكنيتي. لم أكن أفتري على أخيك هذا بل أدعو له بالتوفيق.

– أظن أنك مخطئ في فهمك لعلاقتنا. وضعت فنجان القهوة على الطاولة كي لا تفضحها رجفات يديها، ورأت وميضًا في عينيه يبث فيها القلق، وبدأت تتمنى لو كان «بارني» معها رغم أنها كانت تدرك أنها قامت بزيارتها هذه لتلقينه درسًا. وسمعت «بيتر» يسألها:

– ألا تحبين قهوتي؟

– إنها قوية جدًا، لكن شكرًا لك على تقديمها إليّ. انحنى إلى الأمام ووضع رأسه بين يديه وراح يتفحصها متسائلاً ثم قال:

– لدي انطباع أنك على وشك الفرار، أليس كذلك؟ ترددت حيال تقبل ما قال، فلعلها مخطئة في شأنه، لكنها شعرت بارتخاء شديد في ساقها وشعرت بأن الشك الذي يساوره ظاهر بوضوح في عينيها فقالت:

– أظن أنه من الأفضل أن أعود إلى الفندق لعل «بارني» بدأ يتساءل عن مكان وجودي.

– لو كان الأمر يهمه لرافقك.

– لكن هذا خطأ فهو يهتم بي.

– وهل قلت له إنك قادمة إلى هنا؟

– لا، ليس فعلا إنما هو يعرف الاتجاه الذي سلكته.

– وهل سيلحق بك؟

– لا أدري... ربما. وضع فنجانه على الطاولة ثم انحنى مجددًا وابتسم قائلا:

– إنك فعلا تحيرينني يا «سامنتا» أنا عاجز عن التقرير إن كنت الفتاة الساذجة التي يدل عليها مظهرك أم أنك ممثلة بارعة؟

– لست أيًا منهما.

– آه، تعالي. ودعينا من هذا، أنت حتمًا إحداهما. كنت أميل إلى اعتبارك فتاة ساذجة، لكن هذا لايتماشى مع تجوالك في أنحاء «اسكتلندا» برفقة رجل تدعين أنه ليس زوجك ولا عشيقك ولا أخاك كما أن هذا الوصف لا يطابق قدومك لزيارتي. ما هو سرك يا «سامنتا»؟

– لا أسرار لديّ. نهضت عن كرسيها وتوجهت إلى الباب، ووقفت قليلاً وقد سحرتها روعة المنظر الذي رأته وأنستها مشاكل الحاضر وقالت:

– كنت مهتمة بالتعرف إليك لكونك فنانًا، بكل بساطة.

– آه، فهمت الآن. اقترب منها ووقف وراءها ولف خصرها بذراعه وهمس في أذنها:

– أود رسم صورتك يومًا ما، لكن الآن هناك أشياء من الأفضل أن أفعلها. وشدد قبضته على خصرها وانحنى نحوها يحاول معانقتها وانتفض قلبها ذعرًا بعد أن أدركت رعونة قرارها بزيارته، وقالت له لاهثة:

www.rewity.com

- اتركني يا «بيتر»، أرجوك لم آتِ لهذا الغرض. لكنه لم يأبه وحاول معانقتها، فقاومته بشدّة بيديها وقدميها وكادت قواها أن تخور حين فوجئت بيدين قويتين تقبضان على «بيتر» وتقذفان به بعيدًا فيرتطم بحائط المنزل ويهوي على الأرض. جلس ينظر إلى مهاجمه وعادت الابتسامة إلى ثغره ثم قال:

- أظن أنك «بارني» ولا أظن أنك أخوها كذلك. بدا «بارني» أقل غضبًا مما توقعت «سامنتا» ولم يسألها حتى إن كانت على ما يرام، مما أغضبها في تلك الظروف، بل سمعته يقول له بصوت هادئ ومؤدب:

- ربما لأني لست أخاها. وهل يفترض أن أكون أخاها؟ رفع «بيتر روبرتس» كتفيه وهو لا يزال جالسا على الأرض وقال مبتسما:

- فهمت منها أنك بمثابة أخيها.

- وهل أدركت خطأك الآن؟ أومأ «بيتر» إيجابا وقال:

- حسنًا يا صديقي، كنت أشك في ذلك في بادئ الأمر. لكن فتاتنا هذه ادعت أنك لست زوجها ولاعشيقها ولم أجد أي صفة أخرى تنطبق عليك.

- ما رأيك في كوني خطيبها؟ سنتزوج في الثاني عشر من الشهر المقبل.

- آه، فهمت الآن. وحدقت عيناه الزرقاوان إلى وجهها الغاضب وقال:

- لا تلعبين بالألفاظ أيتها الفاتنة. ثم ابتسم لـ «بارني» وقال:

- لكن أظن أن هذا التصرف من ضمن عادتهن، أليس كذلك؟ وشرعت «سامنتا» تقول:

- لم... لكن «بارني» شدد قبضته على معصمها وضمها إلى جانبه دون أن ينظر إليها حتى حين تكلم:

- لا أظن أننا سنلتقي بعد اليوم يا سيدي، فإننا راحلان غدًا صباحا.

- لا أريد... لكن «بارني» رماها بنظرة حادة وقال لها:

- نحن راحلان. وإلى ذاك الحين أنصحك بعدم الابتعاد عني حتى تتسنى لي مراقبتك. كان هذا أسوأ مايمكنه قوله في هذه اللحظة إذ انفجر «بيتر» ضاحكا وشعرت بكُره شديد نحوه، رغم إدراكها أنه غير مكترث أبدًا لمصيرها. لم يترك «بارني» معصمها ثانية واحدة في أثناء عودتهما إلى الفندق، وكأنه خشي أن تعود إلى الهرب، والتزم بالصمت إلى أن توقفا على مقربة من الفندق في مكان معزول، ولاحظت أن الارتياح بادٍ على وجهه حين التفت نحوها يتفحصها بصمت ثم قال:

- لا تتعلمين أبدًا من أخطائك، أليس كذلك؟

- أعرف تمامًا ماذا أفعل.

- آه، لا أشك أبدًا في ذلك. فكنت تحاولين على طريقتك المتهورة الخاصة أن تثبتي لي أني لست الرجل الوحيد في حياتك على غرار مافعلت مع «بيل سميث».

- كلا! لم...

- طبعًا، نعم، ما كنت تحاولين إثباته واضح تمامًا لكنك تختارين أغرب الأشخاص لأدوار تمثيلياتك. اخترت أولا دمية من دُمى ملاكي الأراضي القدامى، وهأنت الآن تقعين على فنان فوضوي لكني أهنئك على حبك للتنويع.

- توقف عن التصرف بهذا التعجرف فأنت تجهل كل شيء عن

www.rewity.com

شعوري، ولست أحتاج إلى ملاك حارس يتبعني إلى كل مكان. لست أحتاج إليك.

– أهذا رأيك إذن؟ وكيف تتصورين أن الفصل بينكما كان سينتهي لولا تدخلي؟

– بإمكاني أن أتدبر شؤوني بذاتي. تمنت لو كان باستطاعتها الصعود إلى غرفتها لبلورة الأمور المبعثرة في ذهنها.

– بإمكانك أن تدبري شؤونك بذاتك! هل جننت يا «سامنتا»؟ لم يكن عاشقك الفنان هذا يمزح ألم تفهمي ذلك؟

– لم يزعجك هذا الشيء كثيرًا؟

– لأني لا أستطيع أن ألومه.

– ماذا؟ هل عليّ الافتراض أن الذنب ذنبي؟

– طبعًا ذنبك، حين تذهبين إلى زيارة رجل يسكن وحده في مكان معزول، فمن الطبيعي لا يفكر إلا في شيء واحد.

– لم أدرك هذا. ونظر إليها نظرة تعجرف أغضبتها ثم قال لها:

– لا أظنك بهذه السذاجة يا «سامنتا» بل أردت الانتقام مني على الرغم من إنكارك ذلك. ومقابلتك لصديقنا الفنان الملتحي تنبع من القرار ذاته حسنًا، أرجو أن تكوني راضية عن النتيجة. زاد قلقها لكونه اقترب من الحقيقة، وتمنت لو توقف عن التحديق إليها لكنها اعترضت على كلامه قائلة:

– لم يكن هنالك أية نتيجة. لم يحدث بيننا شيء سوى محاولته عناقي ولم تستطع الحؤول دونها.

– آسف إن خيبت أملك لكني قلت لك إنني لا ألومه، فهو كان يحاول

انتهاز فرصة لا تعوض وأي رجل مكانه قد يتصرف مثله.

– كما فعلت أنت مرارًا حتمًا.

– ها قد عدنا إلى الموضوع ذاته. أظن أنك مازلت تشعرين بلسعة تلك العلاقات التي يفترض أن أكون قد أقمتها مع النساء؟

– يفترض، لا غير؟ وضحك فسطعت عيناه ثم ضمتها ذراعاه إلى صدره الرحب وهمس:

– بت أصدق أنك تغارين يا حبيبتي، وضحك مجددًا حين هزت رأسها مستنكرة ثم قال ملحا:

– أنا واثقة بذلك!

– أنا لا أغار اتركني الآن يا «بارني»، اتركني.

– لماذا أتركك. سنتزوج قريبًا فلماذا تقاومينني بكل قواك كلما لامستك؟

– لن أتزوج بك، أخبرتك بهذا مرارًا، سأختار زوجي بنفسي متى رغبت في ذلك، ولن أجبر على الزواج بك من أجل تلبية رغبة عائلتينا لا غير.

– أنا أيضًا أرغب في الزواج بك. ألا تقيمين وزنًا لهذا الشيء أبدًا؟

– كلا فأنت موافق على الزواج لأنه سيجمع شمل المؤسسة.

– يا لله يا عزيزتي تصورين الأشياء وكأننا في حرب داحس والغبراء!

– لا يهمني هذا. لن أتزوج بك يا «بارني» وهذا قرار نهائي.

– سوف نرى. من هو الرجل المقبل على لائحتك؟

– يا لك من وحش! يا لك من وحش ظالم شيطاني وكريه!

– شكرًا على لطفك.

– إني أكرهك.

– يا للأسف إذ سوف تضطرين إلى تحملي طيلة حياتك. بعد وقت قريب.

– إن كنت تظن أني...

– أعرف. أعرف. وقطع عليها جميع احتجاجاتها حين ضمها إلى صدره وعانقها بلطف ولهفة.

– 6 –

أمضت «سامنثا» ليلة هادئة، وقد أدهشها هذا الأمر لكونها تجادلت مع «بارني» من جديد في أثناء تناولهما العشاء، وخرجت لنزهة بمفردها بعد العشاء. فقدت السيطرة على أعصابها وداعبها «بارني» كعادته وكأنها طفلة مما زاد غضبها. صعدت إلى الفراش باكرًا، وتوقعت أن تعجز عن النوم طيلة الليلة لكنها ما لبثت أن غرقت في نوم عميق تخللته بعض الأحلام الغريبة، رأت فيها «بيل سميث» و «بيتر روبرتس» يلحقان بها عبر ممرات طويلة، وكلما فتحت بابًا للتخلص منهما وجدت «بارني» واقفًا خلفه ينتظرها. وأفاقت من حالة الاستياء لحتمية تواجد «بارني» أينما ذهبت. وكما أعلن «بارني»، غادرا الفندق في الصباح بعد تناولها الإفطار، لكنها فوجئت به يستشيرها حول وجهة سفرهما، فقالت له في أثناء توجههما نحو الطريق العام:

– يدهشني أن تكلف نفسك عناء استشارتي!

– لماذا؟ فالرحلة رحلتك وأنت تقررين وجهة سفرنا.

– باستثناء بقائنا هنا، فهذا غير مقبول طبعًا.

– طبعًا. لكن مغادرتنا هذا المكان نابعة من قرار حكيم، فلو بقينا هنا لذهبت إلى منزل صديقنا الملتحي من جديد، وقد لا أصل هذه المرّة في الوقت المناسب للحؤول دون قيامه بعمل غير لائق.

– لم يقم بعمل غير لائق. ضحك برهة ثم قال:

– وكيف لا؟ كنت تقاومينه بكل قواك حين وصلت، على الرغم من إصرارك أن ما حصل هو مجرد عناق. كان من الصعب عليها إنكار ما قاله، لكنها لم تشأ الاعتراف بحقيقة شعورها في تلك اللحظة، وخاصة بذاك الارتياح العظيم الذي غمرها لوصوله في اللحظة الحرجة فقال:

– هل أنت واثقة بذلك؟ لقد لاحظت أنك لم تقاوميني بهذه الضراوة حين عانقتك أنا.

– طبعا قاومتك.

– لا، لا. حاولت جهدك أن تتفادي المعانقة، لكنك تجاوبت كليًا معها وكأنك استمتعت بها حين حصلت.

– أنا! رمته بنظرة ساخطة بطرف عينيها، لكنه راح يضحك بصوت ناعم وكأنه يدرك تمامًا شعورها، فقررت الإحجام عن الخوض في الموضوع خاصة أنها عاجزة عن تحديد حقيقة شعورها نحوه. أدركت أنها باتت تجهل كل شيء عن مطاف الرحلة المستقبلي، وتمنت لو استطاعت إيجاد مخرج مشرف يخولها العودة إلى المنزل بلا هزيمة. لو قبل «بارني» أن يتركها وشأنها لكانت توصلت إلى قرار نهائي. مهما كانت طبيعته، لكنها باتت تدرك أكثر فأكثر مدى اعتمادها عليه، وفي المواقف الحرجة خاصة، وهي تجهل إن كانت تستطيع مواجهة

أحداث السفر دونه وسمعته يسألها فجأة:

– أين تريدين أن نذهب؟

– لا أدري، إلى أي مكان، لا فارق عندي.

– إلى البيت؟ هل قررت الاستسلام أخيرًا يا «سامنتا»؟ هزت رأسها بثبات وقالت:

– كلا، تابع القيادة وسوف نجد مكانا في طريقنا.

– عظيم! خيّل إلى «سامنتا» أنها لمست خيبة أمل طفيفة في نبرته. سارت السيارة على طرقات ضيقة سيئة التعبيد مليئة بالحفر، لكن الطبيعة الخلابة والشمس الدافئة غمرتا «سامنتا» ارتياحًا فاسترخت في مقعدها وأغمضت عينيها واسترسلت في أفكارها.

– فيم تفكرين؟ هزت رأسها وقالت:

– لن أخبرك. لا أود إشراك أحد في أفكاري.

– حسنا يا سيدة الأسرار، لكنك بدوتِ لي وكأنك تخططين لشيء ما.

– أنت مخطئ. اهتم أنت بالقيادة ودعني أستمتع بالرحلة. لفت انتباهها شخص يسير على الطريق أمامها، فرفعت رأسها وقالت:

– هناك شخص ينتظر سيارة تقله.

– هناك بالفعل شخصان. لكني ظننتك نائمة.

– لا أبدا. كنت أستمتع بالمناظر الطبيعية.

– كسيدة متفرغة.

– ولم لا؟ باتت تستطيع التمييز بين الشكلين، فأدركت أن هناك شخصا أطول من الثاني، وكان الاثنان يجران أقدامهما تعبا فالتفت «بارني» نحو «سامنتا» وسألها:

– ما رأيك؟ هل نأخذ ركابًا؟ لم يكن من عادته اقتراح شيء كهذا، لكنها ما لبثت أن لاحظت شعرًا أشقر طويلاً يتدلى على كتفي الشخص الصغير القامة، فرفعت كتفيها إذ شعرت بأنها لن تنزعج من رفقة غرباء في هذه اللحظة خاصة أن الإرهاق بادٍ بوضوح عليهما، فقالت «بارني» بتهكم:

– ولم لا؟ أظن أنهما يحتاجان إلى من يقلهما وأتوقع أن تكون المرأة شاكرة لك على أي حال. ضحك «بارني» ثم أوقف السيارة بالقرب منهما، فالتفتا ونظرا إليهما، وابتسمت عينا الفتاة الزرقاوان حين وقع نظرها على «بارني» الذي سألها:

– هل تقصدان المكان الذي نقصده؟ وأومأت الفتاة إيجابا بتشوق وقالت:

– نذهب إلى حيث تذهبان. وأمسكت لتوها مقبض الباب. ابتسم لها «بارني» حين جلست في المقعد الخلفي، وتذكرت «سامنتا» الفتاة الشقراء في فندق «برايتون» وأدركت أن هذا النوع من النساء الشقراوات لايستطعن مقاومة إغراء «بارني». صعد رفيقها إلى السيارة بغير حماس ولاحظت «سامنتا» أنه وسيم الملامح رغم تململه الواضح في هذه اللحظة، وفسرت «سامنتا» ذلك على أساس أنهما تشاجرا حتمًا. والتزم كل منهما بالصمت لبعض الوقت إلى أن سألها «بارني»:

– إلى أين أنتما ذاهبان؟ تكلم الرجل قائلا:

– كنا نتمشى دون هدف محدد.

– لكن المشي متعب في هذا الجو الحار. وأجابت الفتاة بلا تردد وبنبرة متكلفة:

www.rewity.com مـ رمـ وريتي

– طبعًا، رفضت القدوم في بادئ الأمر وأتمنى لو لم أدعه يقنعني بالعكس. ابتسم «بارني» ابتسامة تفهم ونظر إلى الفتاة الشقراء في المرآة ثم قال:

– لا بد من أنك مرهقة الآن. رماه الرجل بنظرة حادة وقال:

– كان بإمكاننا أن نتدبر شؤوننا بأنفسنا.

– أنت تعبر عن نفسك فقط. صاحت الفتاة ثم استعادت بعضًا من هدوئها وابتسمت معتذرة لـ «بارني» وقالت:

– أنا آسفة. كنا نتجادل كما ترون لكن لا يحق لنا أن نزعجكما بخلافاتنا.

– لا عليك. وابتسم لها «بارني» في المرآة وفاض وجهها تحسرًا وقالت:

– سئمت السير على الأقدام. إني أكره أن أكون مرهقة، مغبرة وفي وضع غير مريح.

– أدرك شعورك تمامًا. كانت المرّة الأولى التي تتكلم فيها «سامنثا» والتفتت نحوها الفتاة وكأنها تلاحظها للمرّة الأولى أيضًا. لكن الرجل قال:

– من الأفضل أن نعرفكما بأنفسنا. اسمي «إدوارد وارن» وهذه خطيبتي «باتسي غوردن».

– «بارني فوستر» وهذه خطيبتي «سامنثا داوليش». أوشكت «سامنثا» أن تحتج على كلامه لكنها أدركت أنه لن يجديها نفعًا تفسير الأمور، إذ سوف يظن الزوج أنهما في خلاف مثلهما، فصافحتها وانتبهت إلى أن «باتسي غوردن» تفحصتها بتأنٍ ولاحظت حتمًا غياب خاتم الخطبة

عن إصبعها. وقالت تخاطب «بارني» مبتسمة:

– أشكرك كثيرا على توقفك ودعوتنا إلى الركوب معكما فقد كنت موشكة على الهلاك. وضحك «بارني» وقد بدأ يستمتع باللعبة، ثم نظر إليها في المرآة وقال:

– معاذ الله. معاذ الله!

– «إدوارد» رجل نشيط جدًا وهو لا يدرك أني لا أصلح للسير مسافات بعيدة على الأقدام، ولقد أخبرته مرارًا بأنه يحتاج إلى امرأة قروية نشيطة لا إلى حسناء من المدينة مثلي. ابتسم «بارني» متوددًا ثم قال:

– لا أتصورك أبدًا من النوع الذي يهوي السير الطويل المدى.

– لست من هذا النوع أبدًا وإضافة إلى ذلك فأنا أكره السندويتشات والقهوة المخزنة في الأوعية المبردة. ضحك «بارني» وكان واضحا تعاطفه مع الفتاة، وتساءلت «سامنثا» عن مدى استعداده للاستمرار في موقفه المتعاطف هذا وتجاهله استياء خطيبها الواضح. لكنها سمعته يقول:

– هناك فندق صغير نصله بعد قليل، فما رأيكم أن نتناول الغداء إذا أمكن ذلك؟ وصاحت «باتسي» قبل أن يتسنى لأي منهم التعبير عن رأيه:

– عظيم. فالجوع أرهقني. ذكرها رفيقها بلهجة مستاءة:

– لدينا وجبة طعام معلبة وهي تكفينا. تنهدت «باتسي» وكأنها مشرفة على الهلاك ثم قالت:

– قلت لك إني سئمت من السندويتشات. أفضل وجبة ساخنة وإني مصممة على ذلك. باستطاعتك أنت تذهب وتأكل السندويتشات في العراء إن أردت، أما أنا فسأتناول طعامًا شهيًا وساخنًا وأستمتع به.

بدأت «سامنتا» تشعر بالأسى حيال «إدوارد وارن» لتمادي «بارني» والفتاة الشقراء في تجاهلهما شعوره، وهو إضافة إلى ذلك رجل وسيم وجذاب رغم تقطيبة حاجبيه المستمرة. التفتت نحوه وابتسمت قائلة:

– يسرني جدًا أن تتناول الغداء معنا يا سيد «وارن». نظر إلى الفتاة قبل أن يتجرأ ويبتسم لها ويقول:

– يسرني أيضا، إن كنت فعلا ترغبين في ذلك. رمته «باتسي غوردن» بنظرة متعجبة ومرتابة، لكن تلهفها لتناول طعام شهي حال دون إبدائها أي اعتراض فقالت:

– لديَّ فستان في حقيبتي، سوف أرتديه وأعود من جديد إلى بعض التمدن. قدم إليها صاحب الفندق وزوجته طعامًا شهيًا، ولم يترددوا في طلب المزيد منه واستغلت «باتسي غوردن» الفرصة لالتهام كمية كبيرة من الطعام وكأنها تخشى ألا تسنح لها فرصة مماثلة إلا بعد وقت طويل. وكانت قد ارتدت ثوبًا أصفر يبرز جسمها، ووضعت أقراطًا في أذنيها، وقد انفردت بالحديث مع «بارني» طيلة الغداء تاركة «سامنتا» برفقة «إدوارد» الذي انزعج لهذا في بادئ الأمر، لكنه ما لبث أن ظن أن الحظ قد يحالفه مع «سامنتا» فأعارها كل انتباهه وسألها:

– هل تحبين المشي؟ وأومأت «سامنتا» إيجابا، فانحنى باتجاهها ووضع يده بتردد على يدها وقال:

– كان الأفضل لي لو أتيت أنت معي في هذه الرحلة عوضًا عن «باتسي». فهي تكره المشي.

– لكن المناظر الطبيعية رائعة الجمال وخاصة في هذه المناطق.

– رائعة فعلا. أقول دائمًا لـ «باتسي» إنها لو استطاعت التركيز في جمال

المناظر لنسيت تعبها.

– لكن أظن أن السفر بالسيارة يبقى أقل تعبًا. إني أتعاطف إلى حدٍّ ما مع الآنسة «غوردن» خاصة أنها غير معتادة المشي. وألقى نظرة خاطفة إلى «باتسي» كي يتأكد أنها لن تسمعه، لكنها كانت غارقة في حديثها مع «بارني» ثم عاد والتفت نحو «سامنتا» وقال:

– أعتقد أنني ظلمت «باتسي» بعض الشيء، فهي لا تحب الريف كثيرًا فيما أعشقه أنا.

– هذا يعقد الأمور، أليس كذلك؟

– آه، فقط في أثناء العطلات والأعياد وفيما عدا ذلك فنحن متفقان. رمق «باتسي» التي كانت تتحدث مع «بارني» وتتودّد إليه. وقطب حاجبيه مستاء ثم قال:

– يبدو أنها استلطفت رفيقك. أرجو ألا يتكون لديك انطباع خاطئ عنها يا آنسة «داوليش».

– كلا، حتمًا لا فأنا أعرف «بارني».

–آه، فهمت فهو يحب رفقة النساء. وقد أوحى لي مظهره بهذا الشيء.

– «بارني» يتجاوب دومًا مع المرأة التي تشجعه فهو يحب رفقة النساء ولا يتوانى عن إعلامهن بذلك.

– وأنت لا تمانعين هذا. خفضت عينيها لأنها أدركت أنها مقدمة على كذبة إذ قالت:

– آه، لقد تعودت على تصرفاته وإني أعرف تمامًا أن هذه الأمور لاتعني شيئًا فلا أمانع؟

– أنت فتاة عظيمة. مد «إدوارد» يده وأمسك بيدها ثم قال:

– من المؤسف ألا يدرك حسن حظه. سحبت «سامنتا» يدها بلطف وقالت:

– آه، «بارني» يدرك تمامًا من أنا. وكانت تعرف تمامًا أنها تقول الحقيقة، لكنها اضطربت لكون «بارني» نجح في إثارة غيرتها، وقد صدمت لشعورها بالكره نحو «باتسي غوردن»لاستحواذها في هذه اللحظة على اهتمام «بارني» المطلق. كان شعور الغيرة هذا جديدًا بالنسبة إليها وقررت التخلص منه بأسرع وقت وسألت «إدوارد»:

– إلى أين ستذهبان لاحقًا؟ رفع «إدوارد» كتفيه ثم رمق «باتسي» وقال:

– لست أدري. «باتسي» تفضل أن نعود إلى البيت أما أنا فأود البقاء لمدة أطول.

– هل مضى وقت طويل على سيركما؟

– ليس فعلا. نحن نسير منذ أربعة أيام. روعتها الفكرة لكنها حاولت أن تخفي عنه حقيقة شعورها فقالت:

– إنه وقت طويل لمن لم يتعود على المشي. لماذا لا ترتاحان لبعض الوقت ثم تتابعان رحلتكما؟

– أظن أنك على حق، بحيث يتسنى لـ «باتسي» التقاط أنفاسها.

– أعتقد أن هذا الفندق يستقبل النزلاء، لقد رأيت بعض الناس ينزلون هذا الدرج الذي وراءك وكأنهم يقيمون هنا. التفت إلى الخلف وألقى نظرة إلى الدرج ثم قال:

– إنها لفكرة رائعة وإني متأكد أن «باتسي» ستسر بها.

– وأنا كذلك.

– وهل أنت والسيد «فوستر» باقيان أيضًا؟

– هذا جائز. نظرت إلى «بارني» وفاجأته بابتسامة أربكته رغم محاولته لتجاهلها ومتابعة الحديث مع رفيقته وسمعت «إدوارد» يقول لها برغبة:

– آمل ذلك. أود أن... آه إني أسف لا يحق لي قول ذلك.

– قول ماذا؟ وابتسمت تشجعه فأجاب:

– آمل أن تبقي أنت أيضًا. أود ذلك كثيرًا.

– أعتقد أننا سنبقى. فقرار البقاء يعود لي، ولقد أحببت هذا الفندق وسوف نبقى فيه ليوم أو يومين، إذا وجدنا غرفًا طبعًا. ورجع إلى الوراء بغرور ثم قال:

– سأتحقق من وجود غرف وأفاجئها.

– عظيم، وسأحجز غرفتين لـ «بارني» ولي إذا أمكن ذلك. فوجئ بالفكرة وكأنه توقع أن تستشير «بارني» بينما شعرت «سامنتا» بسرور ماكر لفكرة حجزها لـ «بارني»، دون علمه أو مشاركته.

– هل ستحجزين غرفة له ولك؟

– أود مفاجأة «بارني» أيضًا. هلم بنا. ثم التفتت نحو «بارني» و«باتسي» وقالت:

– أرجو المعذرة منكما. لن يطول غيابنا. على الرغم من اهتمام «باتسي» بـ «بارني» عادت إلى ذهنها توًا حقوق الملكية على «إدوارد» وقطبت حاجبيها في وجهه حين نهض من كرسيه برفقة «سامنتا» فألقت إليه نظرة حادة وقالت:

– إلى أين تذهب؟

– لن أتغيب أكثر من بضع دقائق لا تقلقي.

– لكن... كانت على وشك الاحتجاج لو لم يمسك «بارني» يدها بين يديه ويبتسم لها بإقناع قائلا:

– ما رأيك في أن تجلسي وتسامريني؟ إذ من المفيد أحيانا تبديل الرفقاء، ثم رمق «سامنتا» لبرهة حين وافقت «باتسي» على كلامه وأدركت «سامنتا» أنها اقتنعت بسرعة دون أن تعلم أن «بارني» يستعملها لأغراض شخصية. توجهت مع «إدوارد وارن» إلى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث التقت بامرأة عجوز جالسة وراء المكتب رمقتها بارتياب. وسمعت «إدوارد» يهمس في أذنها حين بلغا المكتب قائلاً:

– تفضلي أولا. لكن «سامنتا» هزت رأسها بحزم وقالت:

– لا أرجوك، تفضل أنت واسأل عن غرفتين لكما، لأنه في حال وجود غرفتين فقط بإمكاننا الذهاب إلى مكان آخر بسهولة أما أنتما فلا.

– هل أنت متأكدة؟

– متأكدة، شكرًا لك. ابتسم لها شاكرًا والتفت نحو السيدة العجوز التي ما لبثت أن لبت طلبه قبل أن تلتفت نحو «سامنتا» وتقول لها:

– أخشى ألا يكون قد بقي لدينا سوى غرفة واحدة. وهي لشخصين إن كنت تقبلين بها.

– أريد غرفتين، أليس لديكم غرفة أخرى؟ وقفت العجوز تفكر ثم دخلت إلى غرفة داخلية وعادت بعد لحظات مبتسمة وكأنها ربحت جدالا وقالت:

– هناك غرفة صغيرة في الجهة المقابلة للباحة. لا كهرباء فيها لكنها

مريحة جدًا وفيها سرير مفروش فإن كان السيد يقبل بها أهلا وسهلا. ابتسمت لها «سامنتا» شاكرة وقبلت الغرفة لـ «بارني» بلا أي تردد ثم قالت:

– حسنًا، سنأخذ الغرفة لكن لا أعرف مدّة بقائنا بالتحديد كوننا نسيح في أنحاء البلاد، هل توافقين؟

– طبعًا. لا تقلقي لذلك. التفتت «سامنتا» نحو «إدوارد» وقالت:

– والآن، بقي أن أزف الخبر لـ «بارني» بألطف طريقة ممكنة. لم تتح لها الفرصة بإخباره عن الغرفة إلا حين نهضوا للرحيل وسأل «بارني»:

– هل يمكننا توصيلكما إلى أي مكان؟ وتبادل «إدوارد» و «سامنتا» نظرة خاطفة ثم تكلم «إدوارد» قائلا:

– شكرا لكننا سنبقى هنا. ونظر إلى «باتسي» يترقب ردة فعلها فقالت بارتياب:

– ماذا تقصد؟

– ظننت أنك سئمت من المشي فحجزت لنا غرفتين ليوم أو يومين. حدقت إليه عيناها الزرقاوان لبعض الوقت، ثم ابتسمت وضمت ذراعه إلى جنبها وقالت:

– أنت رجل رائع يا «إدي».

– إنها فكرة الآنسة «داوليش» في الحقيقة.

– آه، فهمت. عضت على شفتها السفلى تعبيرًا عن بعض الازدراء وكأنها لم تغفل عنها الدوافع التي حدت بـ «سامنتا» إلى اقتراح فكرة بقائهما ثم قالت:

– آه، من الطبيعي أن تقترح شيئًا كهذا. وألقت نظرة حانية ومتوددة إلى «بارني» ثم ابتسمت بغنج وقالت:

– ربما التقينا من جديد يومًا ما.

– ربما. أجابها وكأنه يفكر في أمور أخرى وأيقنت «سامنتا» أنه يتساءل في هذه اللحظة عما إذا كانت الغيرة هي التي فعلا دفعتها إلى اقتراح فكرة بقائهما في الفندق وسرت مسبقًا لخيبة الأمل التي سيصاب بها، فقالت له بخفة:

– آه! سنبقى نحن أيضًا! قطب «بارني» حاجبيه بغضب وسألها:

– آه، وهل صحيح هذا؟

– نعم، لكن أخشى أن أقول لك إننا لم نجد غرفًا لنا جميعًا في الفندق فاضطررت أن أقبل بغرفة صغيرة لك تقع في الناحية المقابلة للباحة.

– هل فعلت حقًا هذا؟ وما هي هذه الغرفة، ترى؟

– لست أدري لكن السيدة قالت إنها مريحة جدًا وفيها سرير لكن بلا كهرباء.

– فهمت، لقد دبرت لي مكانًا في الإصطبل مع الأحصنة. ظن «إدوارد» و«باتسي» أنهما مقدمان على خلاف ففضلا الانسحاب بسرعة واعدين باللقاء حول مائدة العشاء، وما إن غادرا حتى أمسك «بارني» ذراع «سامنتا» بقوة ودفعها إلى الباحة أمام الفندق.

– «بارني»...

– تابعي السير. سارا لبضع دقائق حتى بلغا مكانا منعزلا نوعا ما وتوقف «بارني» فيما حاولت «سامنتا» استعادة أنفاسها، وشعرت بالغضب يجتاحها فسحبت ذراعها وصاحت به قائلة:

– ماذا تفعل بي...؟

– إني أبعدك عن الفندق حتى لا يسمع صراخك إذا ضربتك. أما الآن أود معرفة ماذا فعلت ولماذا؟

– قلت لك إني حجزت لنا غرفتين في الفندق لبضعة أيام.

– حجزت لي غرفة في مكان ما في العلية دون استشارتي.

– ولمَ أستشيريك؟ وهل تستشيرني أنت حول أي شيء؟ بل تكتفي بإصدار الأوامر وتتوقع مني أن أنفذها. هذه المرّة أخذت المبادرة بنفسي.

– هذا واضح، لكن ألم يلعب «إدوارد» الوسيم دورًا في قرارك المفاجئ هذا؟

– تصور ما تشاء. أمسك ذراعها من جديد وأرغمها على النظر إليه وقال:

– هل شعرت بميل نحوه؟ هل ستضمينه إلى قائمتك؟

– أنت تتخيل أمورًا لا وجود لها. ولا أظن أنك مخول لانتقادي، وقد احتكرت الفتاة اللعوب «باتسي» كل وقتك.

– كنت أتوقع أن تتطرقي عاجلا أم آجلا إلى هذا الموضوع. لكني اعتقدت أن ما حدث يشكل سببا إضافيا كي ترغبي في الرحيل.

– لماذا؟ لا تهمني تصرفاتك ولقد قلت لك هذا من قبل.

– وأنا لا أصدقك. نظرت إليه برهة عاجزة عن إيجاد الكلمات المناسبة للرد، ثم استدارت واتجهت عائدة نحو الفندق، بينما بقي هو واقفا مكانه غارقًا في أفكاره قائلاً لها:

– «سامنتا»، تجاهلت نداءه وتابعت السير متخطية الفندق واتجهت

نحو البحيرة. وكانت ترفض أن تلتفت نحوه وتعترف له بغيرتها. وشعرت فجأة بأنامله تلتف حول ذراعها وراح يمشي إلى جانبها بصمت تام. كان الجو رائعًا والشمس دافئة ورحبت «سامنتا» بالنسيم العليل الذي جمد صفحة المياه. انزلقت يده عن ذراعها وأمسكت يدها بقوة، فلم تحاول تفادي ملامسته، لكنهما تابعا السير بصمت. وراحت تقذف بقدمها بعض الحصى على شاطئ البحيرة، وتتمنى لو وجدت مخرجًا من هذا الوضع. ثم عادت إلى الحالة الطبيعية كي يتسنى لها التمتع بجمال المكان وهدوئه وشاعرية سيرهما جنبًا إلى جنب ويدًا في يد، لكن للأسف بدا لها وكأنهما في خلاف متواصل، وقد تغير كل شيء بينهما وأكثر ما كان يربكها هو التحول الذي يشهده «بارني» في نظرها. وسمعته يقول بصوت هادئ:

- يا لروعة هذا المكان!

- إنه مكان ساحر فعلا، أتمنى لو...

- تتمنين ماذا؟

- لا شيء.

- «سامنتا»... توقف وجعلها تستدير وتواجهه ثم نظر إليها بعينيه الداكنتين وقال:

- لماذا؟ لماذا تحولت الأمور بهذا الشكل بيننا؟

- بهذا الشكل؟ ابتسمت بحزن ثم نظرت إلى صفحة المياه المتلألئة وإلى الأشجار الظليلة المتمايلة وقالت:

- أحبها كما هي. هادئة وساكنة، ليتها تدوم العمر كله.

- لكن يا حبيبتي لا يمكن أن تدوم، وأنت تعرفين ذلك لا يمكنك العيش

في عالم الأحلام طيلة الوقت. عليك أن تعودي يوما ما مهما حاولت المقاومة. يجب أن ننفذ المخطط المرسوم. هذه هي حال الدنيا وليس بوسعنا تعديل مجرى الأشياء.

- أستطيع المحاولة. لا شيء يضطرني إلى العودة. ليس لدي أي ارتباطات، لا وظيفة ولا...

- ولا زوج... أما زلت مصممة على العيش في عالم أحلامك؟ حاولي تفهم موقفي. أريد أن أتزوجك وأنت تعرفين ذلك، وكنت موافقة على الزواج بي، فما سبب التحول المفاجئ؟

- لست... لست أدري إذا حصل تحول في ذاتي، لكني رأيت نفسي في المرآة عند الخياط وأدركت فجأة أني دمية أعيش نمطًا واحدًا من الحياة، إني أقوم بالنشاطات ذاتها كل يوم. كُتب عليَّ أن أتزوجك من غير أن أقف ولو مرّة واحدة وأفكر في حياتي وزواجي. وكأنني منجرفة لا شعوريًا في تلك المشاريع، وأجهل حتى إن كنت راغبة في الزواج بك أو بغيرك.

- آه، فهمت، أهذا ما تحاولين إثباته. إن كنت راغبة في الزواج بغيري؟

- تقريبًا.

- حسنا، لكني أرجو أن تسرعي وتنتهي من تجاربك هذه فهي تضعنا على حافة بركان موشك على الانفجار. نظرت إليه ورأته يبتسم ابتسامة لطيفة ومتهكمة فقالت:

- أرى أنك تتحمل هذا الوضع بسهولة وأنت محاط بمجموعة من الفتيات الشقراوات المستعدات للارتماء بين ذراعيك أينما ذهبت. لامس

طرف أنفها بإصبعه ثم ابتسم وقال:

– وأنت تغارين منهن جميعًا. لا تنكري ذلك يا حبيبتي فالأمر واضح.

– أنكر ذلك بشدَة. لكني أكره أن تستعرض نفسك. فذلك يرتد علي متى أكون معك.

– سأحاول تذكر ما قلتِ يا حبيبتي.

– أشعر بالأسى نحو «إدوارد وارن». فهو رجل لطيف أما رفيقته «باتسي» فهي... قاطعها وهو يرفع يده محذرًا ثم ابتسم قائلاً:

– لا تنحرفي كثيرًا في مؤاساته وإلا اضطررت إلى التدخل.

– لا تتجرأ على ذلك. فالأمر لا يعنيك أبدًا يا «بارني».

– بلى يعنيني إذا ترك بين يدي فتاة شقراء تبكي وتنوح أو إذا فر في رحلة على الأقدام برفقتك.

– هذا مستبعد جدًا.

– ومن قال لك هذا؟ لا أظن أنه رجل يترفع عن عمل كهذا إذا ما سنحت له الفرصة.

– لكن لا نية لي في التواري مع أي كان، فهناك قاسم مشترك بيني وبين «باتسي غوردن» وهو أني لا أحب الاستغناء عن مصادر رفاهيتي واستبدل بها رحلات السير على الأقدام.

– لم لا تعودين إلى البيت إذن؟ جميع أساليب رفاهيتك موجودة فيه بالإضافة إلى تشوق العم «نيكولاس» إلى عودتك.

– كلا، لم يحن الوقت بعد لعودتي إلى العش وقد لا أعود أبدًا. تنهد «بارني» بصمت وقبّل جبينها وكأنه في غيبوبة ثم قال:

– أرجو أن تتوصلي إلى قرار بسرعة وإلا فلن يبقى لدينا أماكن نزورها.

– 7 –

فوجئت «سامنتا» حين أدركت أنهما على طاولة منفصلة عن طاولة «باتسي» و «إدوارد»، وتساءلت عن سبب هذا التدبير خاصة أن «بارني» أظهر ميلا واضحًا نحو الفتاة الشقراء. وألقت نظرة إليهما، فابتسم لها «إدوارد» بارتياب ولاحظت أن «باتسي» متململة بعض الشيء، رغم انهماكها في الطعام. وسمعت «بارني» يسألها:

– هل خاب أملك؟

– كلا، وأنت؟

– قلت لك مرارًا إني أفضل ذوات الشعر الأحمر على الشقراوات. اعتقدت أنك أدركت هذا الأمر.

– يصعب تصديقك. رمق شعرها الذهبي الأحمر المرفوع عن عنقها وابتسم بإعجاب ثم قال:

– أحب تصفيفة شعرك هذه، فهي تضفي عليك رونقًا جذابًا.

– شكرًا. تابع تناول طعامه بصمت لبعض الوقت، ثم وضع شوكته في طبقه ومدّ يده ممسكًا بأناملها ثم تنهد قائلا:

– ما أصعب كسب مودتك! توقعتُ ابتسامة بسيطة ردًا على مديحي لشعرك. سحبت «سامنتا» يدها بسرعة كي لا يكتشف شدة ارتجافها وتابعت تناول طعامها. أزعجها أسلوب «بارني» الاستعراضي خاصة أن عيني «إدوارد وارن» لا تفارقانها لحظة أو ربما بسبب ذلك. رمقت «بارني» وقد احمر خداها وقالت:

– هذه أول مرّة تعلق على تصفيفتي هذه، ما كنت كلفت نفسك هذا

العناء لو لم تبتغ تحقيق غاية معينة.

– لاحظته من قبل لكني لم أعلق عليه لاعتقادي أنك لا تقيمين وزنًا لهذه الأمور.

– أنا امرأة، أليس كذلك؟ ابتسم ببطه ثم قال:

– بكل تأكيد.

– لكنك تعودت معاملتي وكأني أحد أصدقائك الشبان أو كأني أختك الصغرى. ولن يجديك تغيير تصرفاتك الآن من أجل تحقيق أهدافك. إني أعرف جيدًا حقيقة شعورك نحوي يا «بارني».

– لا تعرفين ماذا كانت حقيقة شعوري ولا ما هي عليه الآن. أعترف لك أني لم أعرك القدر الكافي من الاهتمام من قبل، لكن الأمر مختلف اليوم، أريد حقًا أن أقول لك إنك رائعة الجمال وأن شعرك جميل. إني أغازلك يا «سامنتا» وأتوقع منك أن تعطيني بصيص أمل بين الحين والآخر، ابتسامة أو كلمة لطيفة.

– لا تكن سخيفًا يا «بارني»، أدركت أن ارتباكها هو الذي دفعها إلى استعمال هذه اللهجة القاسية، وألقت نظرة خاطفة إلى طاولة «باتسي» و «إدوارد».

– هل اقتنعت الآن أنك لا تحسنين التصرف حين أحاول أن أغازلك؟

– فات الأوان يا «بارني»، إني أعي تمامًا أسباب مغازلتك لي الآن، ولا أحب أن يهزأ أحد بي. تنهد بعمق وانكمشت أسارير وجهه ثم تناول سكينا وقال:

– أنت أعند وأحمق حمارة صغيرة رأيتها في «اسكتلندا»، أرجو أن تخنقك السمكة التي تأكلينها!... أمضيا معظم النهار التالي في التنزه

في الريف المجاور. وأصرت «سامنتا» على التنزه سيرًا على الأقدام مدعية أنه أفضل أسلوب للاستمتاع بالمناظر الطبيعية، وفاجأها «بارني» حين لم يعترض على اقتراحها، فعادا مساء إلى الفندق، وقد احمرت خدودهما وانفتحت شهيتهما للطعام وسمعت «بارني» يهمس لها:

– يمكنني التهام حصان بكامله. ثم لوح بيده ردًا على تحية «باتسي غوردن» بينما تجاهلتها «سامنتا» لكنها ابتسمت لـ «إدوارد» حين دخل قاعة الطعام وجلس إلى مائدتهما ثم قالت:

– أنا أفضل بعضًا من السمك اللذيذ الذي قدم إلينا البارحة.

– من هذا السمك الذي تم صيده ليلة البارحة في البحيرة.

– صحيح؟ ومن قال لك إنه اصطيد ليلة البارحة.

– لا أحد. لكن القمر ليلة البارحة كان مؤاتيًا للصيد. كانت قد صعدت باكرًا إلى الفراش الليلة الماضية، وتساءلت عما فعل «بارني» بعد أن تركته. ربما لحق بـ «باتسي» و «إدوارد» إلى مقهى الفندق وتناول برفقتهما بعض الشراب.

– ماذا فعلت الليلة الماضية يا «بارني»؟

– طرب وشراب، أمضيت وقتًا طيبًا.

– أصدق ذلك لكن هذا مستبعد في مكان كهذا.

– آه، ذهبت إلى المقهى بعد رحيلك. وكان يعج بالناس كان عليك أن تأتي يا حبيبتي.

– هل جلست معهما؟ ابتسم حين أشارت إلى «باتسي» و «إدوارد» ثم قال:

– معهما، كان «إدوارد» مرهقًا وصعد إلى الفراش باكرًا كما فعلت أنت.

– فهمت. وضحك بصوت ناعم ثم قال:

– تظنين أنك فهمت يا حبيبتي.

– آه، لا يصعب التكهن أن الآنسة «باتسي» لن تتركك تسهر وحدك. فهي تؤمن بضرورة استغلال الفرص التي تسنح لها، أنا واثقة بذلك.

– عزيزتي «سامنتا». وانحنى فوق الطاولة وقال لها بصوت منخفض وعينين براقتين:

– بدأت تتصرفين وكأنك قطة صغيرة، ويا لسوء نيتك إن كنت تفكرين فيما أظن أنك تفكرين.

– إني أفكر بما هو بديهي.

– أصحيح هذا؟ أظن أن لي حقًا مشروعًا في أن يساورني الشك أيضًا.

– ما... ماذا تعني؟ تعلم جيدًا أني صعدت إلى الفراش باكرًا. أومأ إيجابا من غير أن تفارق البسمة ثغره وقال:

– ورأيت «إدي وارن» يصعد إلى غرفته باكرًا أيضًا، هل ينبغي أن أقفز إلى الاستنتاجات البديهية؟ حدّقت إليه «سامنتا» وقد احمر خداها وصاحت به:

– يا لك... يا لك من وحش شنيع ومشكك!

– ما ينطبق على «زيد» ينطبق على «عمرو».

– لكنك تعلم جيدًا أني لا أفعل شيئًا كهذا.

– أنا أظن أنك لا تفعلين شيئًا كهذا، لكني بدأت أتساءل أخيرا إن كنتُ حقًا أعرفك جيدًا.

– تعتقد أني...

– لكنك تعتقدين أني... ابتسم ثم عاد إلى الاهتمام بطلب وجبة الطعام،

بينما راحت الخادمة تنظر إليهما بارتياب ثم التفت نحوها وسألها:

– ماذا تريدين أن تأكلي؟ هزت «سامنتا» رأسها وكأنها منهوكة القوى وقالت:

– أي شيء، اطلب لي ما تشاء. لم يتكلما كثيرًا في أثناء الطعام لكنها رمقته مرّة أو اثنتين بطرف عينيها محاولة التأكد من كونه يعني فعلاً ما قاله عنها وعن «إدوارد وارن» أم لا؟ وكانت تتمنى ألا يكون جادًّا فهي تكره أن يسيء الظن بها رغم قرارها عدم الزواج به.

– «بارني».

– نعم.

– هل تعتقد فعلا أني... عضت على شفتها كي لا تتفوه بالكلمات من جديد لكنها نظرت إليه في ثبات إلى أن قال:

– وهل تعتقدين فعلاً أني؟ ترددت لحظة ثم هزت رأسها قائلة:

– كلا ليس فعلا.

– سوّي الأمر إذن، هيا بنا ننسَ القضية برمتها. أتوافقين؟

– أوافق. قررا التوجه بالسيارة إلى بقعة تطل على مناظر خلابة وجلست «سامنتا» على مقعد خشبي تنتظر قدومه بالسيارة وإذ تفاجأ بـ «باتسي غوردن» وقد احتلت المقعد الخلفي وكأنها مصممة على مرافقتهما في النزهة، لم تشأ كتم استيائها للوضع، فرمت الفتاة الشقراء بنظرة غاضبة قبل أن تلتفت نحو «بارني» وتسأله:

– هل ستأتي الآنسة «غوردن» حقًا؟

– إن كنت موافقة، لقد ذهب «إدوارد» إلى المكان الذي تقصده سيرًا على الأقدام وبقيت «باتسي» بمفردها فعرضت عليها مرافقتنا.

– فهمت. وتنهدت «باتسي غودرن» بينما رفرف جفناها بيأس أُنثوي وقالت:

– لم يكن بوسعي مواجهة تعب المشي على الأقدام لهذه المسافة الطويلة، فمضى «إدوارد» وحده وأظن أنه غضب مني لكني أشتاق إلى زيارة المكان فهو يطل على مناظر خلابة. لقد أخبرونا به ليلة البارحة، أليس كذلك يا «بارني»؟ اكتفى «بارني» بالابتسام وقال:

– هلم بنا نذهب إليه ونتأكد بأنفسنا. صعدت «سامنتا» إلى جانبه وفكرت في أن قرار توزيع المقاعد اتخذه «بارني» وإلا لوجدت نفسها في المقعد الخلفي. بعد بضع دقائق اتخذت السيارة طريقًا جانبيًا يتسلق الجبل بانحدار قوي وما لبث «بارني» أن قال:

– لقد وصلنا. وتنهدت «باتسي» ثم قالت:

– ما أسهل الوصول إليه بالسيارة وما أصعبه سيرًا على الأقدام. آه، لو كان «إدوارد» يملك سيارة!

– ما دمنا نتكلم عن «إدوارد» أظن أني أراه يتسلق المنحدر. وأشار «بارني» بإصبعه إلى رجل يتسلق التلة بسرعة كبيرة وسألته «سامنتا»:

– هل تعتقد أنه سوف يرانا؟ وأجابتها «باتسي» وكأنها غير راغبة أبدًا في أن يلحق بهم «إدوارد».

– أنا متأكدة من العكس فهو يدخل في نوع من الغيبوبة في أثناء السير ولا يعود ينتبه إلى أحد.

– سنتوقف ونلوح له. نفذ «بارني» كلامه فورًا فأوقف محرك السيارة، ونزل من السيارة واضطرت «باتسي» إلى الاقتداء به على الرغم من أنها لم تكن ترغب قط في اللحاق بـ «إدواد». ووقفت على شفير الهاوية وكان

همها الوحيد هو معرفة ردة فعل «بارني» حيال وضعها المتأرجح بين اليابسة والهاوية. ولاحظها أخيرًا فمدّ يده وسحبها إلى الأمان ثم قال لها:

– من الأفضل أن تتراجعي قليلا وإلا تدحرجت نزولاً إلى حيث يسير «إدوارد». أمسكت «باتسي» ذراعه بيديها الاثنتين وصاحت خائفة آه، لم أدرك خطر موضعي، شكرًا على مساعدتك يا «بارني».

– لا شكر على واجب. احتفظت بيديها على ذراعيه وراحت تحدّق إلى الوادي وترتعش قائلة:

– يا لقوة انحدار هذا الوادي! أشعر بدوار حين أنظر إلى أسفل.

– لا تنظري إذن إلى أسفل.

– يا لقساوتك يا «بارني»! وسألت «سامنتا»:

– هل سننتظر «إدوارد»؟ وكانت قد بدأت تشعر باشمئزاز شديد من تصرفات الفتاة الشقراء الاستعراضية. التفت «بارني» نحوها وبرقت عيناه ضحكًا، فاحمر خداها حين أدركت السبب. لقد ظن أنها تغار من «باتسي غوردن». ومدّ يده نحوها لكنها تفادتها وكأنها لم تنتبه لحركته بينما بقيت الفتاة الشقراء متمسكة به.

– يمكننا انتظاره. ربما شعرت «باتسي» برغبة في مرافقته إلى الفندق فطريق العودة سهلة إذ لا صعود فيها، أليس كذلك يا «باتسي»؟

– لا، لا تتخلَّ عني يا «بارني» بهذه الطريقة.

– لا أنوي التخلي عنك لكن لربما سر «إدوارد» إن مشيت معه. نظرت إلى «إدوارد» في أسفل الوادي واكفهر وجهها ثم قالت:

– أعتقد أنه سيسرّ لذلك لكني أفضل أن يأتي هو معنا على أن أسير كل

هذه المسافة برفقته. انتبه «إدوارد وارن» أخيرًا إلى وجودهم ولوح بيده.
لم يفاجأ بوجود «باتسي» معهما وتساءلت «سامنتا» عما إذا كان يتوقع أن تعود «باتسي» برفقته. وحين وصل إلى مكانهم وقد انهمر العرق من جبينه قال له «بارني»:

– إنك حقًا تختار الطريق الشاق، أما نحن فلقد أتينا بالسيارة.

– أرى أنكما أحضرتما «باتسي» أيضًا، كنت أتوقع أن تأتي معكما حين قررت الذهاب بمفردي.

– لا أظنك توقعت أن أجلس في انتظارك طيلة بعد الظهر.

– هل ستعودين برفقتي يا «باتسي»؟ العودة كلها نزول.

– كلا، إني باقية مع «بارني». ولاحظت «سامنتا» أن «باتسي» قالت مع «بارني» وليس مع «سامنتا» وكأنها غير موجودة، وبدا الغضب على ملامح «إدوارد» وشعرت «سامنتا» بالأسى نحوه من جديد ولو تصرّف بقساوة أكبر مع «باتسي» لتغيرت الأحوال كثيرًا بينهما وسمعت «سامنتا» نفسها تقول:

– سأرافقك أنا إلى الفندق. وتساءلت لتوها عما دفعها إلى اقتراح كهذا، لكنها تكهنت أنه ربما كان صمت «بارني» وعدم تشجيعه لـ «باتسي» على مرافقة «إدوارد» هما اللذان دفعاها إلى اقتراح مرافقتها لكنه كان قد فات الأوان، وشعرت بعيونهم جميعها تحدّق إليها وقد بدا «إدوارد» مسرورًا باقتراحها بينما ظهرت علامات الصدمة على ملامح «باتسي» وبدا «بارني» متململاً من الوضع وسمعته يقول لها:

– لا يمكنك العودة سيرًا على الاقدام يا «سامنتا».

– ولم لا؟

– لست معتادة السير، لن تتمكني من قطع نصف المسافة.

– أنت مخطئ يا «بارني».

– لا تتصرفي برعونة. شعرت «سامنتا» بأن كلامه هذا هو الذي رجح كفة الميزان فالتفتت نحو «إدوارد» وسألته بلطف:

– هل يمكنني مرافقتك؟

– طبعًا، طبعًا. بدا وكأنه غير مصدق لما يحدث، أما «باتسي» فكانت حائرة بين تقبلها للفكرة ورفضها. فقد أتيح لها من جهة فرصة الوحدة مع «بارني» لفترة من الوقت لكن «إدوارد» يشكل عصفورًا في اليد فيما لم يكن «بارني» متلهفا كثيرا للانفراد بها، لكن «سامنتا» قالت بعزم:

– إذن . سأرافقك حالما تستعيد قواك. وأنا متأكدة أن «بارني» و«باتسي» لن يمانعا أبدا.

– هل تمانع يا «بارني»؟

– وهل يهمك إذا مانعت أم لا؟

– ليس فعلاً يا عزيزي، لم يكن نزول التلة بالصعوبة التي توقعتها «سامنتا» بل كانت تشعر بدوار ممتع كلما وقفت على السفح، وتأملت الفضاء الفسيح والوديان الخضراء والبحيرات الرائعة الجمال. وقف «إدوارد» إلى جانبها وكأنه مهتم بردة فعلها قدر اهتمامه بجمال المشاهد الطبيعية. وقال لها:

– إنه منظر رائع، أليس كذلك؟

– غريب، أشعر برغبة في البكاء لجماله.

– أفهمك. وصمت قليلا ثم وضع يده بتردد على كتفها ووقف ينتظر ردة فعلها لكنها لم تشأ أن تصده وسمعته يقول لها:

– نحن الاثنان نفكر في الطريقة ذاتها يا «سامنثا».

– لست واثقة بذلك بدأت تتساءل عن سبب تسارع خفقان قلبها، لربما كانت الطبيعة الغنّاء من حولها أو محاولة رفيقها المفضوحة للتقرب منها أو الاثنتان معًا وسمعته يقول لها:

– لكننا حقًا نتفق، آه، لو كانت «باتسي» ترى الأشياء كما أراها أنا لكن... رفع كتفيه ثم أضاف قائلاً:

– وهل يحب «بارني» هذا النوع من الأشياء؟

– آه، نعم، إنه يحبها كثيرًا.

– آه، فهمت. كان واضحا أنه لم يتوقع هذا الجواب فالتزم بالصمت مجددًا وتفادى النظر إليها حين تكلم قائلا:

– لم تمانعي في ذهاب «باتسي» برفقته؟ التفتت «سامنثا» نحوه متعجبة وسألته:

– هل مانعت أنت؟ صمت برهة ثم رفع كتفيه واعترف قائلاً:

– لست أدري، ويخال إليّ أحيانا أنه من الخطإ أن نستمر في علاقتنا.

– وهل تتجادلان كثيرًا؟

– لا نتجادل بكل معنى الكلمة. لست بارعًا في فن المناقشة فتمل مني «باتسي» وأدعها تفعل ما تشاء.

– آه، فهمت. عادت إلى نزول سفح التلة إلى أن وصلت إلى أسفلها تقريبًا، ولم تعد الطريق وعرة لكنها تحولت إلى درب ضيق من الحصى، فتقدم «إدوراد» إلى الأمام، وأمسك بيديها الاثنتين يساعدها على العبور. انزلقت قدمها وكادت تهوي إلى الأرض، فتمسكت بقوة بـ «إدوارد»

الذي سارع إلى ضمها بين ذراعيه متفاديًا وقوعها، وتراءى لها وجهه القريب من وجهها فيما سمعته يعتذر لها قائلا:

– إني آسف. نظر إليها للحظة، وانتبهت للمرّة الأولى إلى عينيه الرماديتين وقد فاضتا نعومة، وإلى وسامته على الرغم من إيحاء ثغره وذقنه ببعض ضعف الشخصية. وأدركت أنه كان ينبغي ألا تطيل فترة بقائها بين ذراعيه، لكنها كانت مسترسلة في تساؤلاتها حول طبيعة علاقته بـ «باتسي» فصدمت حين ضيق قبضة ذراعيه حولها وعانقها.

– «إدوارد» يا سيد «وارن»، دفعته بعيدًا عنها ولم يبدِ أية مقاومة وأدركت أنه يفكر حتمًا في «باتسي» في هذه اللحظة.

– إني آسف، إني شديد الأسف. بدا في منتهى التعاسة والارتباك، فشعرت بأنها عاجزة عن تأنيبه حتى ولو أرادت ذلك وأدركت أن وضعها معه ليس أسوأ من وضع «باتسي» مع «بارني» وأن «بارني» لن يتوانى حتمًا عن استغلال فرصة مماثلة إن سنحت له، فقالت لـ«إدوراد»:

– ليس الأمر بتلك الأهمية. لكنني كنت أفضل ألا تفعل ما فعلت.

– أرجو ألا تخبري «بارني» إذن. فوجئت بكلامه. فلو توسل إليها ألا تخبر «باتسي» لكانت تفهمته لكن «بارني»؟ لماذا «بارني»؟ وسألته:

– «بارني»؟ أومأ إيجابا ثم خفض نظره وراح يحدّق إلى قدميه وقال معترفًا:

– أعتقد أنه لو عرف لضربني ضربًا مبرحًا. وكادت «سامنثا» أن تنفجر ضحكًا لكنها تماسكت وقالت:

– لا داعي للقلق من هذه الناحية. لكني لن أخبره على أي حال.

– شكرًا. عاودها شعور بالشفقة حيال «إدوارد» فابتسمت ومدت يدها نحوه وقالت:

– هيا بنا. استقبلهما «بارني» بحفاوة لدى وصولهما إلى الفندق وعبر عن دهشته لانتعاش «سامنتا». أما «باتسي» فقد بدت مستاءة بعض الشيء وكأن الأمور لم تجر وفقًا لتمنياتها. سُرّت «سامنتا» لكون «بارني» خيب آمال «باتسي» وابتسمت حين فكرت مجددًا في محاولة «إدوارد» معانقتها وكأنه من سخرية القدر أن يتصرف «إدوارد» بإقدام وجرأة أكثر من «بارني» في هذه الظروف. شعرت بتعب شديد من جراء السير، فصعدت إلى غرفتها كي ترتاح ساعة قبل العشاء. تمددت على السرير المريح وراحت تنعم بجو غرفتها المنعش، وبمنظر التلال البعيدة والسماء الزرقاء فوق قممها. لفتت انتباهها أصوات صادرة من الباحة تحتها وتعرفت صوتي «بارني» و «باتسي» وقررت أنه يحق لها التنصت لمحادثتهما خاصة أن «إدوارد» ليس معهما فأصغت جيدًا وسمعت «باتسي» تقول:

– طلبت من «إدوارد» أن يحضر سيارة أجرة هذا الصباح وذهبنا إلى مدينة «بنفار» واشتريت فستانا جديدًا. سوف تظن أني لا أملك سوى فستان واحد إن ارتديت اليوم أيضًا فستاني الأصفر، لكن من الصعب حمل ثياب كثيرة في أثناء السير، أما فستاني الجديد فهو رائع ويلفت الأنظار. أينما كنت لم أتوقع قط أن أجده في مدينة «بنفار». علت ضحكة «بارني» فعضت «سامنتا» على شفتها حين سمعتها دون أن تعرف السبب وسمعته يقول لـ «باتسي»:

– آه، لكن أهل «اسكتلندا» يعيشون في القرن العشرين أيضًا. ضحكت

«باتسي» وقالت:

– أظن أنك على حق، لكن يخيّل إليّ دائمًا أنهم مختلفون عنا بمئتي سنة على الأقل. صمتت برهة ثم قالت:

– «بارني» سوف تطلب أن تُخصص لنا طاولة لأربعة أشخاص، أليس كذلك؟ أعرف أن «إدوارد» لن يحرك إصبعًا حيال هذا الأمر أصغت «سامنتا» بانتباه كبير فهي معنية بالقضية هذه، ويحق لها كل الحق أن تعرف رأي «بارني» في الموضوع وسمعته يقول:

– سأكلم صاحب الفندق، لكن لا أعرف إن كان يناسبهم هذا الشيء. لا يمكننا قلب الأمور رأسا على عقب ونحن لن نبقى في الفندق سوى أيام معدودة. شعرت «سامنتا» بارتياح كبير لجوابه وسمعت «باتسي» تلح قائلة:

– لكنك ستحاول؟

– سأحاول. ساد الصمت بينهما برهة وتبعه همس وضحك فانقبضت يدا «سامنتا» بقوة وراحت تحدّق إلى السقف وتفكر في الآنسة «باتسي» التي بدأت تستعد للانقضاض النهائي على «بارني» وتساءلت «سامنتا» عن خطوتها المقبلة، فالله وحده يعلم ما تحضّره بعد الفستان الجديد والإصرار على الطاولة المشتركة. اغتسلت «سامنتا» بتأنٍّ ثم فتحت خزانة الثياب لتختار فستانا. وقع نظرها لا شعوريًا على فستان لم تكن قد ارتدته من قبل وشاءت المصادفة أن يقع تحت يدها في أثناء تحضيرها حقيبتها بسرعة فضمته إلى ثيابها الأخرى. ترددت عدة دقائق قبل أن ترتديه وتنظر إلى صورتها في المرآة، وتقطب حاجبيها. كان حتمًا يلفت الأنظار بلونه الأحمر الفاقع، وبقماشه الرفيع الذي يلتصق بجسمها

ويبرز كل خط من خطوطه، وله قبة منخفضة جدًا ويرفرف بحرية حول قامتها النحيلة. وأدركت أن منظرها فيه، وشعرها الذهبي الأحمر ملفت للأنظار ولا يخلو من بعض الإثارة، وهو يضاهي كل ما تستطيع أن تلبسه «باتسي غوردن». وضعت المساحيق على وجهها بدقة وزادت من أحمر الشفاه، وتمنت لو أحضرت معها أحمر الشفاه الفاقع كي يتماشى مع الفستان، وراحت تتأمل صورتها النهائية في المرآة. سمعت وقع خطى في الممر وظنت أن «باتسي» عادت إلى غرفتها لتحضير نفسها وارتداء الثوب الذي تطمح أن يكسب لها قلب «بارني» لكنها فوجئت بقرع على بابها وسمعت «بارني» يقول لها:

– هل يمكنني الدخول؟ انتابها ذعر شديد لإدراكها أن «بارني» سوف يراها بهذا الفستان الذي لن يعجبه، على الرغم من إدراكها أنه قد يسحر به لو ارتدته شقراء غيرها. قرع الباب مجددا ظنا منه أنها نائمة، ثم فتح الباب ودخل الغرفة ووقف مشدوها حين رآها. حدّق إليها برهة ثم ما لبثت عيناه أن ابتسمتا وتقدم نحوها بعد أن أقفل الباب وسألها بصوت هادئ:

– ماذا يفترض أن يكون هذا؟

– هذا فستان. دارت حول نفسها دورتين فرفرفت التنورة حول قامتها ثم قالت:

– أرتديه لتناول العشاء.

– فهمت. لكنك لن تتناولي العشاء بهذا الفستان يا حبيبتي، فهو منافٍ للحشمة.

– إنه...

– لا يهمني ما هو. فهو لا يناسب مكانا كمطعم الفندق ويمكنك أن تخلعيه حالاً.

– يمكنني ذلك لكن لا أنوي تبديله وسأنزل به.

– لا، ليس في هذا الفندق. فالمقهى يرتاده الصيادون ولسنا في مقهى «الليدو» في «باريس»، ارتدي ثوبًا أقل إثارة. رمته بنظرة متسائلة وكأنها البراءة بعينها وأدركت في الوقت ذاته أنها بدأت تستمتع بالموقف وسألته:

– هل أثيرك؟ ضحك بنعومة وقال لها بصوت منخفض ارتعشت له:

– أنت تعلمين جيدًا أنك تثيرينني، لكني أفكر في هذا العجوز الذي يجلس في زاوية المقهى والذي قد يصاب بنوبة قلبية إن رآك.

– سوف نعرف عن قريب لأني مصممة على ارتدائه.

– لن ترتديه وأنت تعرفين ذلك.

– لن أخلعه فقط لأنك لا تحبه. طاف بنظره حول جسمها بحنان كبير ثم قال بصوت ناعم:

– آه، إني أحبه، إنه... وعبر بحركة من يديه على إعجابه الصادق، ثم ضحك وقال:

– لكنك لن تتناولي العشاء به.

– سأتناوله به يا «بارني»، هز رأسه ببطء ثم سحب المفتاح من القفل بسرعة خاطفة قبل أن يتسنى لها منعه من ذلك وراح يهز المفتاح أمام عينيها ثم سألها:

– ألن تبدليه؟

– كلا.

– حسنًا. ستحرمين نفسك من عشاء شهي. سأحتجزك في الغرفة إلى أن تغيري رأيك.

– لن تجرؤ على ذلك.

– سأنفذ كلامي وأنت تعلمين ذلك، لن أدعك تظهرين وكأنك «كليوباترا» فتقفز عينا «إدوارد وارن» من محوريهما.

– لا فرق بينه وبينك إن كنت تميل إلى «باتسي غوردن» بفستانها الجديد.

– آه، أنت على علم بهذا الأمر، لكن اطمئني فبعد أن شاهدتك بهذا الفستان لن يعجبني أي فستان آخر.

– سأرتديه ولن تستطيع منعي من ذلك.

– طبعًا لا، لكني قادر على إجاعتك حتى تطيعي الأوامر. هذا أسلوب قديم وفعّال جدًا.

– نعم، إنه أسلوب استعمل في العصور الوسطى. سأصرخ إن احتجزتني هنا، أقسم لك أني سأصرخ.

– إن صرخت أضربك. أما الآن فاخلعي هذا الفستان وإلا حرمت نفسك من العشاء.

– أنت وحش! وحش قاسٍ ومعدوم الإحساس.

– معقول. لقد عرفتك منذ ثماني عشرة سنة ولم ألمس طيلة هذه الفترة هذه الوحشية الفظيعة المختبئة وراء تهذيبك المستعار.

– ليس مستعارا إنما صادق.

– أنت ظالم ومحتال.

– كالثعلب.

– آه... لم تجد الكلمات المناسبة للتعبير عن حنقها فقالت:

– لماذا توافق دائمًا على كلامي؟

– بسبب تهذيبي المستعار. لا حيلة لي. وقفت في وسط الغرفة وشعرت بالجوع يقرص معدتها واحتارت بين متابعة التحدي أو الاستسلام فقالت:

– إني جائعة.

– اخلعي إذن هذا الفستان يا عزيزتي كي ننزل ونتناول العشاء.

– لن... رفع المفتاح وسألها:

– ماذا تفضلين؟

– إني أكرهك، إني حقًا أكرهك. وضع يديه على كتفيها وراح يداعبها بلطف ثم ضمها إلى صدره وعانقها بنعومة وهمس لها قائلاً:

– لا أصدقك! وشعرت «سامنتا» برغبة جامحة في البكاء، لكنها سمعته يهمس في أذنها:

– أنت أجمل بكثير بالفستان الأخضر.

– 8 –

خيّم سكون الليل على الفندق وباحته، وراحت «سامنتا» تتأمل من نافذة غرفتها التلال السوداء البعيدة، وضوء القمر البدر يتلألأ على صفحة مياه البحيرة. نادرا ما كانت تعجز عن النوم، لكنها شعرت كأن صوتا أقلقها، وحال دون عودتها إلى الأحلام إضافة إلى مشاكلها العديدة الأخرى. كان قد انتهى خلافها مع «بارني» باستسلامها كالعادة،

ووجدت نفسها طيلة السهرة أمام فستان «باتسي» الأزرق الجديد الذي فاق فستانها إثارة بكثير. كانت تشعر أيضًا برغبة قوية في العودة إلى البيت والحياة الطبيعية رغم إنكارها ذلك أمام «بارني»، وقد فكرت مليًا في المسألة وخطر ببالها أن تخابر العم «نيكولاس» قبل أن تخبر «بارني» وأن توضح له أنها مستعدة وراغبة حتى في العودة شرط أن يُلغى الزواج وألا يضغط أحد عليها ليثنيها عن قرارها. وكانت تدرك أنها ستخيب أمله وأمل العم «روبرت» لكن المسألة المطروحة تتعلق بحياتها، ويحق لها التصرف بها كما تشاء. لربما تزوجت يومًا لكنها ترفض الفكرة رفضًا قاطعا حاليًا، وإن تزوجت فلن يكون بـ «بارني». اعتبرت «سامنتا» أن خطتها معقولة جدًا وقد يتقبلها العم «نيكولاس» ويقف إلى جانبها.

حاولت العودة إلى النوم بعد أن اعتبرت أنها توصلت إلى إيجاد حل للمسألة لكنها لم تفلح بل رقدت على السرير الواسع تحدّق إلى جدران الغرفة المضاءة بنور القمر، ثم نهضت وتوجهت نحو النافذة حيث راحت تتأمل النجوم الساطعة في السماء. نظرت إلى غرفة «بارني» في الجهة المقابلة للباحة وابتسمت تلقائيًا حين تذكرت وصفه لها بالإصطبل، واستياءه من اختيارها له. كانت هناك أحداث كثيرة عاشتها مع «بارني» تدعوها إلى الابتسام. وعادت بذاكرتها إلى كل تلك الأوقات الطيبة التي أمضتها برفقته منذ أن كانت طفلة وكانت تعتبره بطلاً صنديدًا لكونه أكبر منها سنًا وثقة بنفسه.

لفتت نظرها فجأة حركة في الباحة، وكأنها ظل أبيض سطح في دكنة الليل وما لبثت أن أدركت أن الظل هو ظل إنسان يسير. ولم تجد صعوبة في تعرّف شعر «باتسي غوردن» الأشقر الطويل وقامتها الممتلئة،

وقد لفت جسمها بثوب رقيق وفاتح اللون أضفى عليها شكل الأشباح. وقفت «سامنتا» تراقبها برهة بينما تواردت التخمينات على ذهنها وتسارعت خفقات قلبها. عبرت الفتاة الشقراء الباحة بخفة وحذر، وتوارت عند باب الفندق الخلفي تحت نافذة «سامنتا» بالضبط. شعرت «سامنتا» بيديها تنقبضان بشدّة على حافة النافذة وبالدم يتدفق غزيرًا إلى رأسها بينما وقفت جامدة وقد صعقها ما رأته. فالمكان الوحيد الذي يمكن أن تكون «باتسي» آتية منه هو المبنى حيث غرفة «بارني» فلا أبنية أخرى في الباحة سوى قبو قديم يستعمل لتخزين المؤونة، ومن الصعب جدًا أن تكون «باتسي» قد قامت بزيارته في مثل هذا الوقت.

نظرت «سامنتا» إلى ساعة يدها وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ثم استدارت واتجهت نحو السرير بخطى ثقيلة وارتمت عليه منهارة. كثيرًا ما كانت تتهم «بارني» بإقامته علاقات مع نساء أخريات لكنها لأول مرّة اليوم لمست صحة اتهاماتها، وقد ولدت لديها مرارة غريبة بعيدة كل البعد عن الشعور بالظفر الذي كانت تتوقعه. خيل إليها سماع أصوات خافتة في الممر، وأدركت أن «باتسي غوردن» عادت إلى غرفتها. تصورتها تدخل غرفتها دون أن يكتشف أحد أمرها ولربما كانت سعيدة بما أنجزته، فلم تستطع «سامنتا» تحمل هذه الصورة، فنهضت بسرعة وتوجهت نحو باب غرفتها بعزم رغم أنها كانت تجهل ما تريد عمله.

كانت تعرف شيئا واحدا وهو أنها لن تدع «باتسي غوردن» تفكر في أن أحدًا لم يكتشف نزهتها هذه الليلة ، ففتحت باب غرفتها مصممة على مواجهتها وإخبارها بأنها رأتها خارجة من عند «بارني». في أثناء

فتحها لباب غرفتها سمعت صوت باب يقفل فوقفت في الممر وقلبها يخفق بسرعة جنونية ويداها ترتجفان بقوة. كانت تعرف أن «باتسي» و «إدوارد» يشغلان الغرفتين رقمي اثنين وثلاثة. وراحت تقلب الرقمين في ذهنها حائرة تتساءل عن رقم غرفة «باتسي» إلى أن رأت شعاعًا طفيفًا من النور تحت باب الغرفة رقم ثلاثة فتشجعت وفتحت الباب على مصراعيه ودخلت الغرفة. ما إن كادت تخطو خطوتين حتى وقفت مصعوقة.

كان «إدوارد وارن» متمددًا على السرير ويهم بإطفاء نور الكهرباء حين فوجئ بزائرته تدخل الغرفة. وبعد لحظات عدّة من الجمود المتبادل استدار «إدوارد» ليواجهها والدهشة لا تزال تفيض في وجهه ثم سمعته يقول بصوت غلب النعاس عليه:

– «سامنثا» ... «سامنثا». هزت «سامنثا» رأسها مبعثرة شعرها الذهبي على وجهها وهمست قائلة:

– لم... لم أدرك. ظننت أن هذه...

– هل أنت بخير؟ خُيّل إليّ سماع صوت في الخارج. أومأت إيجابا وبلعت ريقها بصعوبة وشعرت بأنها على وشك الاختناق لكنها استطاعت أن تقول:

– نعم أنا بخير، إني آسفة، إني آسفة جدًا. حدّق إليها برهة ثم نهض من السرير، وقال لها بصوت خافت:

– تبدين وكأنك خارجة من صدمة. هل أنت من أولئك الذين يمشون في أثناء النوم؟

– كلا، لا أبدًا. تراجعت إلى الوراء حين تقدم نحوها فقطب حاجبيه

متسائلاً لكنها تابعت قائلة:

– ظننت أن هذه... دخلت الغرفة خطأ، إني آسفة.

– أخطأت بالغرفة؟ وقف يتفحصها وكأنه لم يصدق بعد ما يجري أمامه.

– كنت أبحث عن... وأدركت فجأة أنه سوف يصاب بصدمة عنيفة إن أخبرته بأن خطيبته كانت تزور رجلاً بعد منتصف الليل، فهزت رأسها بسرعة وقالت:

– ليس الأمر مهمًا. إني آسفة. وأدركت «سامنثا» أنه غير راغب في ترك الأمور على حالها إذ تقدم نحوها ووقف أمامها وأمسك ذراعها في حركة مطمئنة وقال:

– لا أحب أن أراك مضطربة يا «سامنثا»، وأنت الآن مضطربة لسبب ما، ألا يسعني مساعدتك؟

– لا، لا، شكرًا، أنا بخير. استدارت بنفسها كي تعود إلى غرفتها لكنه كان لا يزال يمسك بذراعيها حين ظهر شخص ثالث واقفًا على عتبة الباب المفتوح. نظرت إليهما «غوردن» بعينين لامعتين وظافرتين وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم قالت:

– يا للوضع الحميم! هل أزعجتكما؟ كان من الصعب تحديد أي من «سامنثا» أم «إدوارد» ذُهل لرؤيتها أكثر من الثاني؛ لأن «سامنثا» لم تتوقع قط أن تجابهها في ظروف كهذه فأفلتت بسرعة من يدي «إدوارد» وقالت:

– حصل خطأ. قهقهت «باتسي» ثم قالت:

– طبعًا حصل خطأ.

– كنت أجهل أن هذه غرفة «إدي»... عفوا غرفة السيد «وارن». لم أنتبه. وعضت «باتسي» شفتها السفلى بازدراء ولمعت عيناها غضبًا وأدركت «سامنتا» أنه من الطبيعي أن تحاول «باتسي» رمي عصفورين بحجر واحد.

– هذه حيلة قديمة. ألا يمكنك إيجاد تبرير آخر؟

– إنها الحقيقة. تمنت «سامنتا» في هذه اللحظة لو لم تتهور في اتخاذ قرارها بمجابهة «باتسي» واتهامها بزيارة «بارني» فهي الآن في وضع المنتصر وقد يصعب على أي كان تصديق اتهاماتها لـ «باتسي» الآن.

– هلا قلت لي غرفة من كنت قاصدة؟ ترددت «سامنتا» للحظة ثم قالت:

– غرفتك أنت. جمدت «باتسي» في مكانها وأدركت «سامنتا» أن «إدوارد» كان يحدّق إليها بدهشة وسمعته يقول لها:

– يا لله! ماذا تريدين من «باتسي» في مثل هذا الوقت؟ قطبت «باتسي» حاجبيها وكأنها تستعد للانقضاض دفاعًا عن نفسها ثم قالت:

– هذا ما أود معرفته أيضًا. لم يكن في نية «سامنتا» أن تثير خلافًا حادًا بينهما واحتارت بين البوح بما رأته والتزام الصمت، أدركت أن «باتسي» غير مكترثة كثيرا لاحتمال انكشاف أمرها، فهي على عكس «سامنتا» لم يقبض عليها بالجرم المشهود، ومن السهل عليها الادعاء أن اتهام «سامنتا» لها نابع من محاولة لإبعاد الشبهات عنها فقالت «سامنتا».

– أردت مقابلتك، لا غير.

– كي نتحدث بقلب مفتوح؟ أثارت سخريتها غضب «سامنتا» من

جديد فقالت:

– أظن أنك تعرفين السبب.

– بدت «باتسي» وكأنها فهمت أخيرًا خطورة موقفها فرفعت كتفيها وادّعت التعب الشديد ثم قالت:

– الوقت متأخر جدًا الآن ولا يلائم الخوض في نقاش طويل. إني ذاهبة إلى الفراش ونصيحتي لك أن تفعلي مثلي قبل أن نوقظ نزلاء الفندق جميعهم. حدّقت إليها «سامنتا» للحظة وهي تشعر برغبة جامحة في إخبار «باتسي» أنها رأتها، لكنها عجزت عن إيجاد الكلمات المناسبة فاستدارت فجأة وعادت إلى غرفتها، ثم أقفلت الباب دون أن تنظر إليهما، كان بودها أن تعتذر مرة أخرى لـ «إدوارد وارن» لكنها لم تعد تتحمل مواجهتهما مدّة أطول وشعرت برغبة جامحة في البكاء. أسندت ظهرها إلى الباب، وبدأت الدموع تنهمر على خديها وأدركت أن سبب الدموع لم يكن مقتصرًا على إهانة «باتسي» لها حين فاجأتها في غرفة خطيبها بل شمل تلك الصورة المؤلمة لـ «باتسي» عائدة من غرفة «بارني». شعرت وكأن «بارني» قد خانها فارتمت على السرير وأجهشت بالبكاء كطفلة صغيرة. أفاقت «سامنتا» في الصباح التالي وقد أثقلت الدموع جفنيها، وآلمها صداع في رأسها، لكنها شعرت بتحسن طفيف بعد أن استحمت، فارتدت ثيابها وقررت النزول لتناول الإفطار. فوجئت مفاجأة مزعجة حين رأت «إدوارد» و «باتسي» وقد جلسا إلى طاولة تتسع لأربعة أشخاص، واستنتجت أن «بارني» لبّى رغبة «باتسي» بشأن الطاولة. حاولت جهدها لتتظاهر بعدم الاكتراث، لكنه صعب عليها تحمل ابتسامة الرضا التي علت ثغر الفتاة الشقراء وخاصة

بعد أحداث الليلة الماضية. نهض «إدوارد» من كرسيه حين وصلت، بينما بقيت «باتسي» جالسة ونظرت إليها مبتسمة ثم قالت بتهكم:

– هذا تغيير نحو الأفضل. قطب «إدوارد» حاجبيه لبرودة استقبال خطيبته لـ «سامنتا» وقال:

– أرجو ألا يكون لديك مانع يا «سامنتا»، اكتفت «سامنتا» برفع كتفيها وأدركت أن لا أهمية لمانعتها أو عدمها لكون «باتسي» ستعتبر ممانعتها من باب الغيرة لا غير فتسر بها. لم يكن هناك أثر لـ «بارني» بعد، وتساءلت «سامنتا» عما إذا كان قد تعمد التأخر كي يتجنب التبرير لها عن مطالبته بتغيير ترتيب الطاولة وقالت:

– لا فارق عندي. ثم رمقت ساعة يدها وقالت:

– تأخر «بارني». قهقهت «باتسي» وحدّقت إلى «سامنتا» بعينيها الزرقاوين ثم قالت:

– لربما أقلقه شيء ما، وهو يحاول تعويض ما خسره في النوم. كان كلامها موجها لـ «سامنتا» فقط، وشعرت بموجة من الغضب تعتريها، وقد أزعجها قلة اكتراث الفتاة لاحتمال إفشائها لسرها وأدركت «سامنتا» أن أمامها نهارًا قاسيًا ورفضت تناول الإفطار مكتفية ببعض القهوة قائلة لهما:

– لا أريد سوى بعض القهوة، لست جائعة؟

– هل أنت مريضة؟

– لا أبدًا. أنا بخير يا «إدوارد»، شكرًا. وقالت لها «باتسي» بصوت معسول:

– أظنك تعانين عوارض ما بعد الصدمة، فيا لها من صدمة حين يفاجأ

المرء في أثناء سيره في خلال النوم.

– أنا مصابة بصداع. أظن أنه سيزول متى تنشقت هواء منعشًا.

– في أثناء السير؟

– ربما. شربت فنجانين من القهوة القوية، ثم جلست تفكر في أنه عليها اتخاذ قرار بشأن «باتسي غوردن». لن يجديها نفعًا أن تخوض خلافًا معلنًا بل يكفيها أن تقطع شعرة «معاوية» بينها وبين «بارني» فتكون قد انتقمت لنفسها، لن يسر حتمًا لتركها له مجددًا لكنه سوف يدرك أن «باتسي» هي سبب رحيلها، ولن يعود متلهفا لكسب ودها أو ربما فعل ذلك. صعدت إلى غرفتها قبل مجيء «بارني» وتكهنت أن «باتسي» سوف تبقى في انتظار وصوله غير مكترثة لرأي «إدوارد» في الموضوع، لربما حالفها الحظ ونجحت في تنفيذ خطتها، فجلست في غرفتها تنتظر سماع صوت الباب المقابل يفتح ثم يقفل. وكما توقعت وبعد مرور عشر دقائق سمعت وقع خطى في الممر، ثم صوت باب الغرفة رقم ثلاثة ينفتح. فخرجت بسرعة من غرفتها ورأت «إدوارد» على وشك إقفال باب غرفته فابتسمت له وقالت:

– هل تسمح لي بمحادثتك لبضع دقائق يا «إدوارد»؟ تردد برهة ثم أومأ إيجابا وخرج إلى الممر مجددا وقال:

– طبعًا، ما الخير يا «سامنتا»؟ هل يمكنني مساعدتك؟

– بإمكانك مساعدتي إن أردت ذلك.

– طبعًا. تقدم نحوها ووقف أمامها، ثم تردد قليلاً قبل أن يأخذ يديها بين يديه ويقول:

– كنت متأكدًا ليلة البارحة أنك لست على ما يرام. وعرفت اليوم أنك

بكيت، أريد مساعدتك يا«سامنتا»، أرجوك، قولي لي ما يمكنني أن أفعل. ابتسمت «سامنتا» ثم قالت:

– أود أن تساعدني على الهرب دون أن يدري بي أحد. نظر إليها «إدوارد» بتعجب ثم قال:

– الهرب، لا أفهمك جيدًا يا «سامنتا».

– آه! خفضت عينيها في اتجاه يديها المتشابكتين، وشعرت ببعض الذنب لاستغلالها طيبته واستعداده لمساعدتها، رغم تأكدها أن «باتسي» لن تحب أن يساعدها.

– أريد مغادرة هذا المكان. هذا كل ما في الأمر.

– لكن، «بارني».

– أود الابتعاد عن «بارني» بالذات، لا أريده أن يعرف أني ذاهبة يا«إدوارد»، ولهذا السبب طلبت مساعدتك، هل تقبل؟ بدا مترددا وحتى أنها لمست بعض الخوف فيه واستغربت أن يكون «بارني» يخيفه. وعادت إلى ذاكرتها لحظة توسل منها ألا تخبر «بارني» بأنه عانقها، وهي الآن تطالبه بالكثير، لكنها شعرت بأنها لم تعد تحمل الوضع بين «بارني» و «باتسي» فقالت له بصوت متوسل:

– أرجوك يا «إدوارد».

– حسنًا، حسنا، لا أفهم تماما ما يدفعك إلى الرحيل دون إخبار «بارني» لكني سأساعدك إن أمكن ذلك.

– آه، طبعًا يمكنك مساعدتي. شكرًا لك يا «إدوارد»، ألف شكر. تطاولت وقبلته على خده مما زاد في اضطرابه، فلمس خدها بإصبعه وقال:

– أخبريني الآن، ماذا تودين أن أفعل؟ وأعدك أني سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك.

– اطمئن فطلبي سهل التنفيذ. أظن أن «بارني» يتناول الإفطار حاليًا، أليس كذلك؟ أومأ إيجابا وقطب حاجبيه حين عادت إلى ذهنه صورة المشهد الذي عاشه لتوه في المطعم قائلاً لها:

– أصرت «باتسي» على أن تبقى برفقة «بارني» فتركتهما. ونظر إليها برهة وكأن من واجبه الاعتذار عن تصرفات «باتسي» ثم قال:

– أظن أنك تريدين الرحيل بسبب ما يجري بينهما. خفضت «سامنتا» عينيها وقالت:

– نوعًا ما.

– إني آسف جدًا يا «سامنتا»، أدرك تمامًا ما تشعرين به لكن أرجوك ألا تتهوري بسبب هذا الشيء. أنا أعرف «باتسي». وأعرف أن المسألة لن تدوم.

– ظننت أنا أيضًا أني أعرف «بارني». لكن... لكني أريد الرحيل يا«إدوارد»، أرجوك. بدا تعيسا أكثر من أي وقت مضى لكنه قال:

– أنت تحتاجين إلى سيارة أجرة، أتودين أن أطلب لك واحدة؟

– أرجوك و.. وهل بإمكانك أن تطلب من السائق ألا يثير ضجة حين يصل لئلا يراه «بارني»؟

– سأطلب منه ذلك رغم أنني لا أعرف مدى استعداده للتقيد بهذا الأمر.

– حاول على أي حال. ابتسمت له من جديد ثم سألته:

– هل ترافقني إلى المحطة يا «إدوارد»؟ أكون شاكرة لك إلى الأبد إن

أتيت.

– نعم، طبعًا سأرافقك.

– شكرا فكرت «سامنتا» في أن تغيبه لبعض الوقت سوف يقلق حتمًا «باتسي». نزل «إدوارد» لإجراء المخابرة فيما انتهت من تحضير حقيبتها، وعاد بعد قليل فسلمته حقيبتها وسارت خلفه في الممر، ثم نزلا إلى الباحة وقلبها يخفق بسرعة جنونية. أدركت أنه إذا كان «بارني» ما زال مصممًا على إقناعها بالزواج به فسوف يلحق بها، أما إذا كان يشعر بأن توطيد علاقته بـ «باتسي» أهم بالنسبة إليه من زواجه بها فلن يكلف نفسه عندئذ عناء اللحاق بها. وشعرت بموجة من الذعر تجتاحها لاحتمال عدم لحاقه بها. وسمعت «إدوارد» يسألها حين وصلا إلى المحطة:

– هل أنت متأكدة أن الأمور ستسير على ما يرام؟ لا أحب فكرة رحيلك بمفردك يا «سامنتا».

– لن يصيبني أي مكروه، لا تقلق. وتساءلت عن سبب صرفه سائق السيارة وإصراره على العودة إلى الفندق سيرا على الأقدام، ربما يكون قد فكر أيضا في إزعاج «باتسي» لبعض الوقت خاصة أن «بارني» سيكتشف أولاً اختفاء «سامنتا» وحقيبتها فيطرح غياب «إدوارد» أيضًا تساؤلات عديدة قبل أن يكتشفا أن حقيبته لا تزال في غرفته، لكن الخطوات هذه سوف تستغرق بعض الوقت وقد تستغل «باتسي» هذا الوقت كي تدرك أنه من الأفضل لها ألا تفقد «إدوارد» وأن تقلع عن تصرفاتها التافهة هذه، خاصة أن «بارني» سيثور غضبه حين يكتشف هربها وسيعبر عنه بطريقة أو بأخرى.

قطعت تذكرة سفر إلى مدينة «كارليل» وقدّرت أنه بوسعها التوجه منها إلى منطقة البحيرات من جديد والبقاء فيها لبعض الوقت. كانت متأكدة أنه ليس من السهل على «بارني» اللحاق بها هذه المرّة لكونه لا يعلم وجهه سفرها ولن يستطيع موظف البطاقات العجوز في قرية «بنفار» إرشاده إليها لعدم ملاحظته لها، بعكس الموظفين الشباب في المحطات الأخرى. كان القطار يسير ببطء، لكن المناظر الطبيعية المحيطة بها كانت رائعة الجمال، فشعرت «سامنتا» برغبة في الارتخاء والاستمتاع بها ولم يكن في مقصورتها سوى امرأة عجوز غارقة في حياكة الصوف، ورجل يقرأ كتابًا مما أراحها من عناء الخوض في أحاديث السفر التقليدية. أحست برغبة في الهدوء والعودة إلى نفسها للتفكير في خطواتها المقبلة. ربما تمكنت من مخابرة العم «نيكولاس» من مدينة «كارليل» وإخباره بأنها بخير وأنها عادت إلى «إنجلترا» من جديد، وأنها تتوق إلى العودة إلى المنزل شرط ألا يثار موضوع زواجها بـ «بارني» من جديد، وأدركت أن عليها إقناعه بأن زواجها بـ «بارني» غير وارد قطعًا في الحاضر.

وفوجئت ثم ذهلت بدمعة ثقيلة تتدحرج على خدها، ثم تبعتها ثانية وثالثة وكرت السبحة دون أن تتمكن من السيطرة عليها. لم تكن في حياتها من النوع الذي يبكي بسهولة وها هي تجهش بالبكاء للمرّة الثانية في أقل من أربع وعشرين ساعة. تناولت منديلاً ومسحت دموعها، ثم وضعت نظارة شمسية داكنة لتخفي تورم جفنيها واحمرار عينيها عن المسافرين في مقصورتها. تذكرت في أثناء ترجلها من القطار في «كارليل» أنها نسيت أن تدفع فاتورة الفندق وتصورت غضب «بارني»

حين يكتشف ذلك إضافة إلى غضبه لهربها ولم تستطع أن تتماسك عن الضحك. خابرت العم «نيكولاس» من كشك هاتف وجدته أمام المحطة، وما لبثت أن سمعت هدير صوته المألوف في أذنها وقد ارتاح كثيرًا حين سمع صوتها وقال:

– حبيبتي «سامنتا»، آه يا حبيبتي، هلا توقفت عن إخافتنا بهذا الشكل؟

– آسفة يا عزيزي، صراحة، لم يكن في نيتي أن أُخيف أحدًا.

– خابرني «بارني» لتوه. وقال لي إنك عدت إلى الهرب من جديد لماذا؟

– ألم تسأله السبب؟ فالمفروض أن يكون هو أول العالمين بالسبب.

– طبعًا سألته وقال لي إنه لا يعرف.

– يا له من... أمسكت آلة الهاتف بقوة وشعرت برغبة جامحة في تحطيمها على رأس «بارني» المتعجرف لكنها سمعت «نيكولاس» يقول لها:

– هل يعني ذلك أنكما اختلفتما من جديد؟

– نعم من جديد.

– لكن لماذا؟ ليس من عادتكما أن تختلفا، كنت في الماضي...

– مرنة المزاج؟ أهذا ما تريد قوله؟ حسنا لكني أعلمك أني لم أعد كذلك.

– يبدو لي أنك تتصرفين بعناد وتهور، وأتساءل صراحة كيف استطاع «بارني» تحملك طيلة هذه الفترة دون أن ينفد صبره.

– لقد نفد صبره مرات عديدة.

– لا عجب.

– آه يا عمي «نيكولاس»، لا تتحيز لـ «بارني». أريد حقًّا العودة إلى البيت لكن... لكن لا أريد الزواج بـ «بارني».

– لكن لماذا يا حبيبتي؟

– لأني... آه، لأني لا أحب أن تفرض عليّ الأمور. أرجوك أن تفهمني يا عمي «نيكولاس».

– إني أحاول فهمك يا حبيبتي، لكنك تعرفين «بارني» لمدّة طويلة الآن وتعلمين حتمًا حقيقة شعورك نحوه.

– هنا المشكلة يا عمي فإني لا أعرف. ومعرفتي به طيلة هذا الوقت لم تتح لي التعرف إلى أي رجل غيره. كل شيء كان مبرمجًا في حياتي حتى الآن، وشعرت برغبة في التحليق بجناحيّ لبعض الوقت والتطلع حولي كي أتحقق إن كان هناك أحد أفضله على «بارني».

– «سامنتا».

– ولمَ لا يا عمي...، لمَ لا؟

– تقصدين رجالاً مثل «بيل سميث» أو الفنان «بيتر» مجهول باقي الهوية أو هاوي السير على الأقدام؟ شعرت بغضب شديد نحوه وكأنه يتهمها بإقامة علاقات وثيقة مع كل من أولئك الرجال، ولابد من أن يكون «بارني» هو الذي أعطاه هذا الانطباع المشوه عن الواقع قادر على اختلاق قصص وتعظيمها حسب مزاجه.

– لم يختلق أية قصة في الحقيقة.

– وما تُسمّي إذن تلك الأخبار التي أبلغك إياها؟ ولماذا لم يخبرك بشيء عن قوافل الفتيات الشقراوات اللواتي تركناهن جاثيات في كل أنحاء

البلاد أو بشيء عن الآنسة «باتسي غوردن» التي أمضت جزءًا من الليلة الماضية في غرفته؟

– «سامنتا».

– آه... كنت متأكدة أنه لن يخبرك بهذا التفصيل الصغير.

– يا حبيبتي، أنت حتمًا على خطإ، فـ «بارني» يحبك.

– يا لغرابة أسلوبه في التعبير عن هذا الحب! وأحست بالدموع تعود إلى الانهمار على خديها، لكنها تابعت قائلة:

– إنه يكره فكرة إفلاتي من بين يديه، فلقد تعود اعتباري ملكًا له ويتوقع أن أنفذ طلباته وكأني كلب صغير مدرب على الطاعة، وذلك بغض النظر عن نشاطاته ومغامراته العاطفية. إني أرفض قضاء بقية حياتي مكتفية بإطاعة أوامره بينما يواصل نشاطاته النسائية مع كل فتاة شقراء يصادفها.

– آه! يا حبيبتي، أنت حقًا مضطربة. أدركت أنه قلق عليها، وتمنت لو كانت في البيت برفقته واستطاعت البكاء على كتفه الحنون لكنها الآن في كشك حديدي في «كارليل» ومعرضة للانهيار بين اللحظة والأخرى.

– أنا بخير، أنا حقًا بخير يا عمي «نيكولاس» لا تقلق، كل ما في الأمر أني غاضبة.

– غاضبة من «بارني».

– طبعًا من «بارني» ألا يحق لي أن أغضب منه؟ تنهد بعمق ثم قال:

– لا أدري ما أقول لك يا حبيبتي، هل ستعودين إلى البيت؟ قاومت الإغراء المعروض عليها بكل قواها، وهزت رأسها وكأنه يستطيع أن يراها قائلة:

– كلا، ليس الآن يا عمي، إني أفكر في الذهاب إلى البحيرات من جديد وأمضي فيها يومًا أو يومين حتى تتبلور الأمور في ذهني فهي منطقة رائعة وهادئة.

– أليست «اسكتلندا» أيضًا منطقة رائعة وهادئة؟

– لا هدوء حيث «بارني» و «باتسي غوردن». سأكون بخير يا عمي «نيكولاس» لا تقلق بشأني أرجوك. تنهد بعمق وكأنه رضخ للأمر الواقع ثم قال:

– حسنا يا حبيبتي، لكن أرجوك ألا تنسي أن تتصلي بي بين الحين والآخر، إذ يقلقني أن تسافري بمفردك ودون «بارني».

– سأتصل بك. أخابرك لحظة وصولي إلى «بونس». أعدك بذلك يا عمي «نيكولاس».

– حسنًا، وحاولي يا حبيبتي أن تعودي قريبًا لقد اشتقنا إليك كثيرًا.

اكتفت «سامنتا» بالتفوه بكلمة «وداعًا». إذ كانت الدموع الساخنة قد عادت إلى الانهمار، وشعرت وكأن كتلة تسد حلقها. وتمنت لو كان بوسعها التخلص من تعاستها الحالية، ومن تلك الفكرة التي ما لبثت أن ترافقها، إن «بارني» سيلحق بها من جديد.

– 9 –

تمكنت «سامنتا» من الحصول على غرفة في فندق «ستاغ» في قرية «بونس». وقد دفعها حنين قوي إلى الماضي لاختيار الغرفة ذاتها التي نزلت فيها على طريق الذهاب إلى «اسكتلندا». خرجت من الفندق في

الصباح التالي لنزهة على ضفاف البحيرة. كان الجو هادئًا ومنعشًا تحت الأشجار الظليلة ولا أحد يزعجها أو يتجادل معها، لكنها بدأت تتوق إلى من تتكلم معه. أغاظتها الدموع التي عادت تتجمع في عينيها دون سبب فمسحتها بسرعة وعادت إلى ذاكرتها ما كانت تكرره دائمًا لـ«بارني» من أن الدموع للأطفال والأولاد وهي لم تعد أيًا منهم. «بارني»! ها قد عادت إلى التفكير فيه وأدركت أنها لم تفكر فيه في حياتها بالقوة والاستمرارية كما هي هذه الأيام. و «بارني» سعيد حتمًا الآن حيث هو، ويستغل فرصة وجود «باتسي غوردن» معه وميلها الواضح نحوه خاصة أن «إدوارد» سيكتفي على الأرجح بدور المشاهد ولن يتدخل بينهما أبدًا. تراءت لها من جديد صورة «باتسي» وهي تتسلل عائدة من غرفة «بارني» فازدادت غزارة الدموع في عينيها حتى أنها حجبت عنها الرؤية كليًا. أمضت الليلة الفائتة تراقب المسافرين الجدد، وتنتظر ظهور رأس «بارني» الداكن المألوف، وحتى أنها حين صعدت إلى الفراش بقيت مدّة طويلة تنصت إلى الأصوات في الممر، لعلها تسمع صوته العميق والمطمئن أو قرعًا على بابها لكن دون جدوى. كانت قد تناولت العشاء في الليلة الماضية برفقة سيدة متقدمة في السن، لم تحاول فتح أحاديث معها لإدراكها أن «سامنتا» تفضل الوحدة. كلمتها قليلاً حول مائدة الإفطار، ولاحظت «سامنتا» أنها سيدة لطيفة جدًا وتشعر ببعض الوحدة. راحت تفكر في أثناء سيرها أنه ربما ارتاحت قليلاً إن وجدت شخصًا تستطيع التحدث إليه عن مواضيع عامة فتنسى «بارني» قليلاً إذ أدركت أنه تحول إلى هاجس لا يفارقها لحظة. سمعت وقع خطى على الأوراق الجافة، فالتفتت وابتسمت لا شعوريًا حين رأت السيدة العجوز

تتقدم نحوها وتجلس إلى جانبها بالقرب من ضفة البحيرة.

– هذا المكان رائع الجمال، ألا توافقين؟ أومأت «سامنتا» إيجابا وقالت:

– إنه ساحر.

– أنا أقصده منذ أكثر من ثلاثين عامًا ولم أسأم منه بعد فهو يبدو لي مختلفًا في كل مرّة. ثم ضحكت معتذرة وقالت:

– ربما ظننت أني أناقض نفسي، لكني متأكدة أنك فهمت قصدي.

– طبعًا. يشعر المرء بأنه مهما تغير الناس الوافدون إلى هذا المكان إلا أنه يبقى وسيبقى حتى بعد أن نزول نحن. ابتسمت المرأة بلطف وقالت:

– هذه ملاحظة يا عزيزتي صحيحة أيضًا، هل تعلمين أني أتيت للمرّة الأولى إلى هنا منذ ستة وثلاثين عامًا وأمضيت شهر العسل فيه وإني أعود إليه كل عام. غصت عينا «سامنتا» بالدموع لسماعها قصة هذه العجوز العاطفية، وتساءلت عن مدة ترمل المرأة، إذ كان من الواضح أنها فقدت زوجها، وإلا لما كانت الآن بمفردها وحاولت «سامنتا» أن تسألها:

– هل؟ كيف...؟ وفهمت المرأة قصدها فابتسمت قائلة:

– عشنا معًا ثلاثة وثلاثين عامًا في الهناء، وكنا نأتي أنا وزوجي «شارلز» كل سنة في عيد زواجنا في هذا المكان وحين توفي منذ عامين شعرت بأنه عليّ الاستمرار في القدوم تخليدًا لذكراه، ثم ابتسمت معتذرة وقالت:

– قد أبدو لك غريبة الأطوار خاصة أنك شابة في أول حياتك، أليس كذلك؟

– لا أبدًا، بل إن قصتك رائعة الجمال، رائعة الجمال.

– هل أنت بمفردك أيضًا؟

– نعم. مدت يدًا رقيقة وأمسكت يدها بلطف وتفهم ثم قالت:

– إني آسفة يا عزيزتي، لا يحق لي التطفل. لكنك في عز الشباب وجمالك أخّاذ فاستغربت كونك تسافرين بمفردك، وأعترف لك أني فضولية لمعرفة وضعك.

– لا أمانع في ذلك أبدًا. ابتسمت المرأة وقالت:

– اسمي «إستر كولنز»، أظن أننا لم نتعارف بعد.

– «سامنتا داوليش». ابتسمت ثم التفتت نحو المرأة فلاحظت نظرة تعجب في عيني «إستركولنز» التي صاحت:

– لكن يا عزيزتي، يا للمصادفات، ألا تسكنين في قرية «ليتل دبستوك» في مقاطعة «ساري»؟

– نعم. أنت على حق لكن بالله كيف...؟!

– لأنه سبق أن التقينا. لكن لا أظن أبدًا أنك تذكرين ذلك كنت في التاسعة أو العاشرة من العمر وقتذاك.

– صحيح. تفحصتها «سامنتا» برهة من غير أن تجد في ملامحها أي شيء مألوف واعترفت قائلة:

– لا أتذكر أبدا. إني آسفة.

– ولم تأسفين؟ كنت طفلة يومها. كنت فتاة صغيرة وجميلة جدًا. ابتسمت «سامنتا» وقالت:

– يسرني سماع هذا، هل كنت تعرفين عمي يا سيدة «كولنز»؟

– ليس معرفة شخصية. لكن شقيقي كان يعرفه وزوجي «شارلز» أيضًا من خلال علاقات العمل. لقد تقاعد أخي حاليًا وهو يكبر عمك سنًا لكني متأكدة أنه سيتذكرك إن أخبرته بكِ. إن ذاكرتي قوية جدًا ونادرًا

ما أنسى شخصًا قابلته. كان عمك اسمه «نورمان»... لا «نيكولاس داوليش»، أليس كذلك؟

– صحيح، عمي«نيكولاس» هو الوصي عليّ منذ أن كنت في الثالثة من عمري.

– أذكر ذلك لم تكوني برفقته ذلك اليوم في بيت أخي بل كنت مع «روبرت فوستر» وابنه.

– «بارني». تفوهت «سامنتا» باسمه وراح قلبها يخفق بسرعة جنونية وبدا وكأن القدر لن يسمح لها أن تتناساه ولو لحظة.

– صحيح، أذكر أننا التقينا به من جديد مرّة أو اثنتين، كان آخر لقاء بيننا منذ بضعة أشهر قبل وفاة «شارلز» وأخبرنا يومها بأنه... خفضت عينيها بسرعة تبحث عن خاتم الخطبة في إصبع «سامنتا» ولاحظت غيابه وفهمت. وأدركت «سامنتا» أنها فهمت فقالت لها:

– كنا مخطوبين.

– صحيح، أخبرنا بهذا. أيقنت «سامنتا»أن السيدة متشوقة لسماع بقية قصتها مع «بارني» لكن رقة إحساسها منعتها من السؤال فقالت لها:

– الأمور معقدة قليلاً الآن. أظن أننا فسخنا الخطبة.

– فهمت. ورمت السيدة العجوز بنظرة خاطفة، ففوجئت بها تبتسم ابتسامة طفيفة لم تخلُ من بعض السخرية، فعضت «سامنتا» على شفتها وقد هددت الدموع بالانهمار من جديد، لكنها سمعت السيدة تقول لها:

– إني آسفة يا عزيزتي، لكن يا لغرابة المصادفات من جديد! ولا يسعني إلا أن أبتسم لهذا الشيء.

– المصادفات؟

– ألست مصيبة في افتراضي أنك اختلفت مع السيد «فوستر» الابن؟

– نعم، اختلفنا.

– وأنا أيضًا اختلفت مع «شارلز» حين كنا مخطوبين وأتيت إلى هذا المكان لأختبئ.

– فهمت الآن يبدو لي أننا في خلاف دائم هذه الأيام ولم نكن هكذا من قبل. هذه علامة طيبة نوعا ما. أنتما تعرفان بعضكما منذ زمن بعيد، أليس كذلك؟

– منذ زمن بعيد جدًا، أعرف «بارني» منذ أن كنت في الثالثة من عمري وهو كان في الحادية عشرة.

– مثلي أنا و «شارلز»، انتقلت عائلتي إلى منزل قريب من بيت آل «كولنز» حين كنا أنا و «شارلز» في التاسعة من عمرنا وكبرنا معًا نوعا ما. تفحصت «سامنتا» وجه المرأة الرقيق والهادئ، وفكرت في أنها وجدت أخيرًا من يفهم حالتها النفسية لمرورها بظروف مماثلة وسألتها:

– هل كنتما تتجادلان كثيرًا؟ ابتسمت «إستر كولنز» ثم اعترفت قائلة:

– كالكَنَّة (امرأة الابن أو الأخ) والحماة مما أذهل الجميع إذ كنا نتفق تمامًا حول كافة الأمور حين كنا أصغر سنًّا، وما إن نضجنا قليلاً حتى تحولت علاقتنا فلم تعد إلا مجرد علاقة بين أخ وأخته بل بدأت الخلافات بيننا ولقد أغاظني يومًا إلى درجة حملتني للهرب والمجيء إلى هذا المكان للاختباء بعض الوقت، وصرف المسكين «شارلز» جهدًا حثيثا حتى عثر عليّ. نظرت إلى «سامنتا» بعينين فاضتا لطفًا وتفهما

ثم سألتها:

– هل أنت الآن في الوضع ذاته يا عزيزتي؟ هاربة؟

– نعم، لكن حالتي كانت أسوأ من حالتك... هل كنت سعيدة في حياتك يا سيدة «كولنز» رغم أنك كنت تعرفينه لفترة طويلة قبل الزواج؟ هل كنت حقًا سعيدة معه؟

– كنت سعيدة جدًا جدًا يا «سامنتا» لأننا كنا نعرف بعضنا معرفة وثيقة حين تزوجنا، وهذا نادر حصوله في حالات الزواج الأخرى. لم يكن هناك نواح مخبأة في طبعينا. لا نزوات ولا فضائل سرية تضطرنا إلى مجابهتها لاحقا. كنا قد تخطينا كل هذه العقبات قبل الزواج وقد ساعدنا هذا كثيرًا.

– أصدقك. لكن «بارني» مختلف. فهو... يحب النساء. لا أعني بذلك أنه يقيم علاقات جنسية معهن كيفما اتفق لا. لا تظني هذا أرجوك لكن... ضحكت رفيقتها بصوت ناعم وهزت رأسها قائلة:

– أذكر أنه رجل وسيم للغاية وأتوقع أن يجذب عددًا وافرًا من النساء كحالك أنت مع الرجال يا عزيزتي، ولا سبب للخجل من هذا الأمر لكني أعرف أنه من الصعب على المرء تقبله حين يكون شابًا ومغرومًا.

– ليتني أعرف ما العمل!

– هل يسعدك أن تخبريني به.

– ربما. تعجبت «سامنتا» للسهولة التي لاقتها في البوح للسيدة اللطيفة بكل ما مرت به في أثناء رحلتها الحالية دون أن تشعر بالمرارة كحالها من قبل. حين انتهت من قصتها التزمت «إستر كولنز» الصمت، ثم تنهدت وهزت رأسها قائلة:

- يا لعَنَاء الرحلة التي فرضتها على هذا الشاب المسكين! ثم ابتسمت مطمئنة وأضافت:

- لكنه سيعثر عليك، لا تقلقي سيجد سبيلاً للعثور عليك إن كان يحبك فعلاً.

- لكني لست متأكدة أنه يحبني، ليتني أعرف! ارتاحت كثيرًا لحديثها مع السيدة «كولنز» اللطيفة وأدركت ولأول مرّة كم افتقدت لمسة إنسانية في سني نموها، وبدت لها هذه السيدة اللطيفة وكأنها مستعدة للاهتمام بها رغم كونها لم تلتقِ بها إلا مرّة واحدة منذ سنوات عديدة. تحدثتا كثيرًا عن زيارات السيدة «كولنز» السابقة لقرية «بونس» برفقة زوجها، وعن وجبات الطعام الشهية التي تقدم إليهما وأدركت «سامنتا» أنها ارتاحت كثيرًا لهذا النهار الذي قضته وفقًا لتطلعاتها. ولم يزعجها سوى أنها وجدت نفسها في حال انتظار مستمرة لوصول «بارني» وحين لم تره على العشاء أيقنت أنه ربما لن يأتي أبدًا. نظرت إليها السيدة «كولنز» في أثناء تحريكها للسكر في قهوتها وسألتها:

- هل من أثر لصاحبك الشاب؟ هزت «سامنتا» رأسها وقالت:

- لا تتصوري أن أتوقع قدومه. فهو وعدني أنه سيحطم عنقي إن هربت منه مرة أخرى، لكني أعتقد أنه فهم قصدي أخيرًا.

- قصدك؟

- نعم، أي أني أريد الانفراد بحالي ولا أريد رؤيته.

- آه، فهمت، لقد كلفت نفسك عناء شاقًا لإفهامه هذا الشيء.

- حاولت قدر المستطاع. آمل أن يعود إلى البيت ويتركني وشأني.

- وماذا ستفعلين أنت عندئذ؟ فوجئت «سامنتا» بسؤالها وقالت:

- أنا؟

- نعم، أنت، هل ستعودين إلى البيت أيضا؟ كانت تشعر برغبة جامحة في العودة إلى البيت لكنها أدركت أنه لن يسهل عليها ذلك خاصة إذا كان «بارني» قد سبقها إليه مؤكدًا بذلك انتهاء العلاقة بينهما، وسوف تلاقي صعوبة جمة في مواجهة الجميع: عمها «نيكولاس» وعمها «روبرت» وحتى «بارني» ولن تعود الأمور إلى سابق عهدها أبدًا. وقالت عندما أحست بثقل كبير يغط على صدرها:

- أعتقد أني سأعود، نعم طبعا سأعود. جلست في البهو تنظر إلى التليفزيون دون أن ترى أي شيء وقررت الصعود إلى الفراش حين انتبهت إلى وصول بعض المسافرين فوقفت بالباب تراقبهم جامدة كالحجر وإذ «بارني» يجري أمامها. نظر إليها وقد سطعت عيناه كالجمر في دكنة المر لكنه لم يبتسم وقال:

- مرحبا يا «سامنتا». انتابها ذعر شديد حين رأت برودة استقباله ولم تستطع التفوه إلا بكلمة قائلة:

- مرحبًا. ظهرت «باتسي غوردن» خلفه وقد بدا عليها التعب الشديد، فيما كان «إدوارد وارن» مقطب الحاجبين لكنه استطاع أن يبتسم لها حين خاطبها قائلاً:

- مرحبًا يا «سامنتا»، تجاهلت الفتاة الشقراء وحيّت «إدوارد» ثم اعتذرت قائلة:

- عفوًا إني أسد المدخل. خيّم سكوت ثقيل على الجو بينهم للحظة، ثم تقدمت «باتسي غوردن» وتوجهت إلى البهو دون أن تبتسم، واعتذر «إدوارد» ثم لحق بها تاركًا «سامنتا» و «بارني» وجها لوجه في نور المر

الخافت وسمعته يقول لها:

– اعذريني أنا أيضًا. وتوجه بدوره إلى البهو تاركا «سامنتا» مدهوشة لاتستطيع الحراك.

– «بارني». التفت ونظر إليها متسائلاً دون أن يظهر أي أثر لابتسامة على ثغره أو في عينيه حتى أنها شعرت وكأنها في حضور رجل غريب، وقالت له بسرعة:

– أنا سعيدة بمجيئك.

– لن أمكث هنا بل توقفت في طريقي إلى البيت.

– آه، يا «بارني»، إني...

– هل كنت تهمين بالصعود إلى الفراش؟ لا تدعيني أُعيقك.

– إني...

– طابت ليلتك يا «سام». استدار ودخل البهو ثم أقفل الباب وراءه. وقفت «سامنتا» في مكانها لحظات مدهوشة وقد أذهلتها سرعة تتابع الأحداث، وشعرت بالدموع الغزيرة تتدفق على خديها، فهرعت إلى غرفتها. أدركت أن «بارني» قرر الرضوخ أخيرا لرغبتها والتوقف عن محاولاته لإقناعها بالعدول عن قرارها بعدم الزواج به، وقد أنزل بها هذا التحول المفاجئ صدمة عنيفة. خلعت ملابسها واستلقت على الفراش، ثم دفنت وجهها في الغطاء لكتم تنهداتها، وراحت تنصت لا شعوريًا إلى قرع محتمل على بابها لكن دون جدوى. سمعت لاحقًا بعض الأصوات والهمس في الممر، فجلست تصغي إليها إلى أن اختفت ثم زالت نهائيًا. لم تتوقع أن تنام لكنها نامت وأفاقت في الصباح التالي والشمس قد أشرقت منذ فترة. اختارت لاشعوريًا فستانها الأخضر الفاتح

الذي يحبه «بارني» وصففت شعرها بالأسلوب الذي يفضله. كان منظرها جميلاً جدًا حين دخلت قاعة الطعام وابتسمت لها السيدة «كولنز» بإعجاب ثم قالت:

– ها قد لحق بك شابُك كما توقعت أنه سيفعل. هزت «سامنتا» رأسها وقالت:

– ليس فعلاً كما توقعت. فهو في طريقه إلى البيت ولم يأتِ بمفرده أيضًا.

– هل تعنين الرجل والمرأة اللذين قدما برفقته ليلة البارحة؟

– نعم، إنهما الشخصان اللذان أخبرتك بهما.

– لقد غادرا مبكريْن.

– لقدّ! لقد غادرا الفندق.

– نعم، تناولا الإفطار مبكريْن ثم رحلا في ثياب المشي، رأيتهما من نافذة غرفتي.

– آه فهمت. ثم نظرت إليها وقد اتسعت عيناها خوفا وسألتها متوسلة:

– و «بارني»؟

– اطمئني فهو لا يزال هنا فلم ينزل لتناول فطوره بعد، هل ستعودين برفقته إلى البيت يا عزيزتي؟ كان بود «سامنتا» أن تعرف الجواب لهذا السؤال لكنها هزت رأسها ببطء وقالت:

– قد لا تسنح لي الفرصة. أخشى أن تكون الأمور قد تغيرت يا سيدة «كولنز».

– تغيرت... لا يمكن أن تكون قد تغيرت كثيرًا يا عزيزتي، فـ «بارني»

موجود هنا وهو في طريقه إلى البيت ويتوقع حتمًا أن يأخذك معه.

– لا أظن ذلك. كان من الصعب عليها مواجهة الواقع الأليم، لكنه واضح بعد ليلة البارحة أن «بارني» لم يعد مهتمًا بما تفعله أو تقوله. كانت على وشك التكلم حين رأت «بارني» يدخل ويحييها ببرود وبأدب ثم يجلس إلى طاولة منعزلة وينهمك في لائحة الطعام. لاحقته السيدة «كولنز» بنظرها وتفحصته بتمعن برهة، ثم التفتت نحوها وابتسمت قائلة:

– لا تحملي الأمور محمل الجد. كل شيء سوف يسير على ما يرام.

– كلا. أنا أعرفه يا سيدة «كولنز»، فهو عنيد جدًا وإن كان قد قرر أنه انتهى من علاقته بي فسوف ينفذ قراره. ابتسمت السيدة بلطف وكأنها تسألها عن ردة فعلها ثم قالت:

– لكن، ألم تخبريه بأن هذا مطلبك؟ لا يمكنك لومه إذن إن كان يتقيد بكلامك، أليس كذلك؟

– آه. لست أدري ما العمل الآن. أتمنى لو لم آت قط إلى هذا المكان بل أن أكون قصدت البيت مباشرة عند عمي «نيكولاس».

– أنت مضطربة جدًا الآن وهذا طبيعي، ولم تأكلي أي شيء. لماذا لاتتناولين بعضًا من هذا الطعام الشهي ثم تقومين بنزهة هادئة وجميلة على ضفاف البحيرة بين الأشجار؟

– لا أريد أي طعام. هزت السيدة رأسها وابتسمت بلطف وقالت:

– تجويع النفس بسبب الحب، من العادات القديمة والسخيفة ياعزيزتي. ألقت «سامنتا» نظرة إلى ملامح «بارني» الداكنة بينما جلس وكأنه غير معني أبدًا بالأمر وعضت على شفتها بيأس. فات الأوان الآن

لتكتشف أنها واقعة حقًا في حب «بارني». أخبرتها السيدة «كولنز» بأن لديها بعض الرسائل للكتابة ولن تستطيع مرافقتها في نزهتها، لكن «سامنتا» كانت تفضل الذهاب بمفردها. أذهلها ما لمسته من حقيقة شعورها نحو «بارني» رغم أنها أدركت أنه كان بوسعها الانتباه إلى العلامات الداكنة ومعرفتها منذ وقت طويل أما الآن فقد فات الأوان. راحت تمشي ببطء وتقذف الأوراق المتساقطة بقدمها، وتتأمل صفحة الماء بتأثير النسيم المنعش، وفكرت في أنه لا يحق للمرء ألا يكون سعيدًا في موضع رائع الجمال كهذا. جلست على أحد المقاعد الخشبية تمزق أوراق غصن التقطته، وتنظر إلى الأفق محاولة إيجاد حل لمشاكلها. لم تعر الوقت انتباهها إلى أن لاحظت فجأة وجود شخص على مسافة ثلاثين أو أربعين مترًا وقد اتكأ على أحد الأشجار وراح يقذف بالحصى في الماء. حدّقت إليه غير مصدقة وقلبها يخفق بسرعة جنونية، ثم نهضت بسرعة واتجهت نحوه. وحين اقتربت منه فوجئت به يستقيم ويبدأ بالسير في الاتجاه المعاكس دون أن ينظر إليها.

– «بارني». استدار ببطء وحدقت إليها عيناه الداكنتان من غير أن ترحبا بها أبدا. انتظر بصمت لحظة وصولها إليه، فوقفت مترددة ترتعد فرائصها وقالت:

– مرحبًا. وشعرت بثقل دموع البارحة في جفونها حين نظر إليها قائلا:

– مرحبًا يا «سام». أدركت «سامنتا» أنه غير راغب في مساعدتها، وغار قلبها وقالت:

– إني... قالت لي السيدة «كولنز» أن «إدوارد» و «باتسي» غادرا الفندق

في الصباح الباكر.

– هذا صحيح.

– هل قررا العودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام؟

– نعم. انكمشت يداها لا شعوريًا وقد بدأت تنزعج لبروده قائلة له:

– لا أظن أن «باتسي» سرت بهذا المشروع.

– لم تكن مسرورة لكنها تفضله على خسارة «إدوارد». انتبهت إلى المعنى المبيت في تلميحه فنظرت إليه بسرعة وجوبهت ببرود عينيه القاسيتين قائلة:

– «بارني»... هل تعرف سبب رحيلي؟

– لقد رحلت. وهذا يكفي!

– لكنك يجب أن تعرف السبب.

– يجب؟ أعرف أنك جعلت «إدوارد وارن» يساعدك على الهرب دون علمي، وأعرف كذلك أن «باتسي غوردن» فاجأتك في غرفته في الواحدة صباحًا. أظن أن هذا سبب رحيلك. حدقت إليه «سامنتا» مذعورة وغاضبة في الوقت ذاته قائلة له:

– هي أخبرتك بذلك؟ اكتفى برميها بنظرة خاطفة وكأنه يتحداها أن تكذب الخبر.

– وصدقت كلامها. طبعًا تصدق كلامها فأنت تحكم عليّ من خلال أفعالك أنت. أدركت أن كلامها حرك فيه أخيرًا وترًا حساسًا وسألها:

– ماذا تقصدين؟ تلألأت الدموع في عينيها وانقبضت يداها بقوة ثم قالت:

– لقد رأيتها. سكت برهة ثم مدّ يده، وكاد أن يلامس خدها لكنه

سحبها في آخر لحظة وقال:

– لقد رأيتها؟ وهي تغادر المبنى حيث غرفتي؟ أومأت إيجابا. وعجزت عن التكلم لتألمها من تلك الذكرى وسمعته يقول لها:

– هل هذا سبب رحيلك؟

– وأومأت من جديد ودموعها على وشك الانهمار ثم قالت:

– وفي الصباح التالي كنت قد حققت رغبتها في إعادة ترتيب طاولة الإفطار فما عدت أستطيع الاحتمال.

– لكني لم أقم أنا بالترتيبات بل «إدوارد». هو الذي طلب أن يعاد ترتيب الطاولتين، وليس أنا.

– لم أعلم بهذا الشيء. شعرت «سامنتا» بأن المسألة فقدت الكثير من أهميتها الآن ولم تكتسب أهمية وقتها إلا لكونها واحدة ضمن سلسلة من الكوارث حلّت بها تباعًا.

– كانت تعرف أني شاهدتها عائدة من المبنى حيث غرفتك وكانت تعرف أيضًا أني لن أخبر «إدوارد» كي لا أؤذيه فاستغلت الفرصة لإذلالي ولم أعد أستطيع التحمل.

– هل شعرت بالغيرة؟ نظرت إليه مستنكرة ما قاله لكنها سارعت إلى خفض عينيها مجددًا معترفة بصحة افتراضه، فانتبهت إلى أنه عاد إلى ابتسامته المألوفة وسمعته يسألها بصوت ناعم:

– هل كنت في غرفته؟ أومأت إيجابا. ثم قال:

– لماذا؟ أم يجدر بي ألا أسألك عن السبب؟

– طبعا يمكنك أن تسألني، ظننت أني دخلت غرفتها وكنت عازمة على... على التكلم معها ولم أرَ سوى شعاع نور تحت باب الغرفة رقم

(3) فدخلت.

– ووجدت نفسك في غرفة «إدوارد». أدركت أنه بدأ يضحك فرمته بنظرة غاضبة وقالت:

– لا أرى ما يدعو إلى الضحك يا «بارني»، كدت أن أموت لشدة ارتباكي ثم وصلت «باتسي» وازدادت الأمور سوءًا.

– أعرف شعورك.

– تعرف، وكيف يمكنك أن تعرف؟ أنا رأيت «باتسي غوردن» عائدة من مبناك تتسلل وكأنها لص. وقد اعترفت بأنها كانت هناك وكانت فخورة بذلك.

– فاجأتك داخل غرفة «إدوارد» لكن لم يكن في نيتك أن تكوني فيها، أليس كذلك؟

– طبعًا لا.

– ولماذا لا تمنحينني شهادة براءة الذمة نفسها؟

– آه، يا «بارني»، أودُّ ذلك. لا أريد التصديق أنك كنت معها. عجزت عن النوم في تلك الليلة لشدة تعاستي. مد يده مجددا ولمس خدها بلطف، فأدارت وجهها ولامست أنامله القوية وسمعته يقول:

– اعتقدت أنك أنت تطرقين بابي وحين أدركت أنها هي طردتها. ظننت للحظة أن الطارق أنت. نظرت إليه «سامنتا» وشعرت برعشة تعتريها وقالت:

– هل كنت تطردني لو طرقت أنا بابك؟

– طبعا، ألا تدرين أني إنسان طاهر وشريف؟

– آه يا «بارني».

– آه. يا «سامنتا». اقترب منها وضمها بين ذراعيه ولامست شفتاه جبينها وعينيها بلطف لكنها همست:

– قد يرانا أحد.

– إن رأتنا صاحبتك السيدة «كولنز» فهنيئًا لها. ثم ضحك حين نظرت إليه متسائلة:

– ماذا تعني؟

– أعني أنها أخذت مشروع سعادتك على عاتقها لا شك في أنك أخبرتها بمغامراتنا بالتفصيل وقد علمت أن العم «نيكولاس» يوافيني بأخبارك وبمكان وجودك.

– أجل، لقد أخبرتها. كنت أحتاج إلى التحدث إلى شخص ما وكانت لطيفة جدًا معي ومتفهمة وهي تعرفنا أيضًا. لقد تذكرتني رغم أنها لم ترني منذ زمن بعيد.

– أعرف ذلك فهي خابرت العم «نيكولاس» وأخبرته بأنك هنا علمًا منها أنه سوف يطلعني بالخبر، وقد سُرَّ للحصول على بعض المعلومات عنك. ومنذ لحظات قليلة أتت إليَّ بعد أن تأكدت أنك تتنزهين خارجًا وحدثتني عن الماضي وأشارت بدهاءٍ متناهٍ إلى أنك تتمشين بين الأشجار في هذا المكان.

– آه. وكنت عازما على ألا تكلمني، أليس كذلك؟ ضحك ثم قال:

– أجل. قررت أنه قد حان الوقت كي أعاملكِ بالمثل وأن أهرب منك، هل أحببتِ ذلك؟ رمته «سامنتا» بنظرة معاتبة ثم قالت:

– كلا لم أحبب ذلك قط.

– تعرفين الآن بماذا شعرت طيلة هذه الرحلة.

– إني، إني آسفة. ضحك «بارني» ثم قبّل طرف أنفها وقال:

– أعرف أنك آسفة. كانت تشعر بسعادة متناهية وهو يضمها إلى صدره ونظرت إليه تسأله:

– «بارني» أمازلت تريد الزواج بي؟

– إلا إذا كنت تفضلين العيش في الخطيئة!

– كلا أريد أن نتزوج.

– حسنًا. لا يزال أمامنا متسع من الوقت قبل الثاني عشر من الشهر. كنت متأكدًا أننا سنتفق عاجلا أم آجلاً وكان بإمكانك أن تبقي في المنزل. وابتسمت ثم هزت رأسها وقالت:

– لو لازمت المنزل لما كنت تعرفت إلى «بيل» و «بيتر» و «إدوارد» وما كنت أدركت أني أفضلك عليهم جميعا. إضافة إلى أني سررت لتجميعي بعض المعجبين أيضًا.

– لقد جعلتني أمر بلحظات قاسية جدًا في أثناء تكوينك لمجموعتك هذه وسوف أضطر إلى مراقبتك عن كثب في المستقبل لتدارك تكرار حالتك.

– لن تعاودني هذه الحالة أبدًا يا حبيبي.

– أرجو ألا تعاودك. لكني سأحاول جهدي ألا أدفعك في المستقبل إلى التصرف بهذا الشكل.

– يمكنك مثلا أن تكف عن معاملتي وكأني أمة بين يديك. وضمها إلى صدره بلهفة ثم همس في أذنها:

– لن أعاملك هكذا أبدًا يا حبيبتي، أبدًا.

تمت بعون الله